أريدها حياة

مجموعة قصصية

أريدها حياة

مجموعة قصصية

محمد سمير رجب

فكرة الغلاف: أ. ميرفت أمين

تصميم الغلاف: د. بولا وجيه

الطبعة الأولى: 2021

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 13563 /2021

الترقيم الدولي: 7- 42-6798-977-978

إشراف عام: رباب الشهاوي

الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما. أمام جنينة مول. مدينة نصر

Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing

أريدها حياة

مجموعة قصصية

محمد سمير رجب

الفؤاد للنشــــر والتـــوزيــــع

إهـداء

إلى النور الذي أهداني البصيرة، فأهديت تلك المجموعة القصصية

الجـزء الأول

الباب

عشرة أعوام مرت لا أدري كيف ولا متى.. لكنها مرت وها أنا جئت أخيرًا.. استقبلتني المدينة الحافلة بضوضائها المثيرة.. تشعر أن المدينة الكبرى تحتفل بمقدمك.. يمر الوقت لتجدها لا تعبأ بك أساسًا.. الضوضاء ليست احتفالًا عابرًا لكنه طبيعة قابعة.. مع إيماءة سائق تاكسي، واستجداء امرأة متسولة، وإلحاح شاب يعرض عليك باستماتة سلعة لا تحتاجها، يكتنفك إحساس عميق بأنك تحولت لمحفظة ضخمة مكتظة بأوراق كبيرة من فئة المائتين جنيه.. هل أنا حقا محفظة منتفخة يداعبها كل الناس كي تدر بعض الجنيهات؟ هل يمكن أن يتم استقبال حنيني بكل هذا القبح غير المحتمل؟ لا أحد يعلم برجوعي من الخارج.. أردتها مفاجأة لهم جميعا.. ففاجئوني..

أستقل سيارة أجرة .. أصل إلى غايتي.. يطلب الرجل أضعاف ما كان يمكن طلبه في أيام ما قبل الاغتراب.. أنقده ما يريد غير عالم هل هذا حقه أم أنه يستغل شرودي التام ودهشتي الكبيرة بكل ما حولي.. هل تبدو علامات الحماقة على محياي؟ هل يحسبني أجنبيًا جئت كي يستغلني كل من هب ودب في هذا البلد؟ الأجانب أنفسهم بدأوا منذ زمن يفهمون هذا الجو من التلاعب الذي يحيطهم به الباعة المصريون.. يمكن أن تضحك على أجنبي مرة واحدة،

لكن ليس كل مرة.. لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين.. هذا مبدأ عظيم يأخذون به، نسيناه نحن، على أمل أن نستغل المرة الأولى لكل سائح يجيء..

الشوارع تغيرت كثيرًا، أكوام الزبالة في كل مكان، حشرات بأجنحة صفراء تطير على جانبي الطريق، يقودها أطفال صغار لا يتعدون الثمانية أعوام بمنتهى التهور مصدرين ضجيجًا عاليًا من أشباه كاسيت موضوع على مقربة منهم، تبرز أقدام النساء من داخل هذا "الشيء الأصفر" بيضاء نظيفة عبر فتحات العباءات المحبوكة بدقة..

تصطدم دراجة بسيارة ملاكي فتشتعل الساحة بشظايا، وينتشر سباب عنيف لا يتناسب مع بساطة الموقف الذي كان يمكن إنهاؤه قديمًا باعتذار هادئ يتقبله الطرف الآخر في وداعة بالغة.. تمتد الأيدي والأرجل وقطع الحجارة والعصي، يتفاقم الأمر فتظهر أسلحة بيضاء، يركب صاحب السيارة وينطلق بعربته على وعد بالعودة حيث تتسع الدائرة ويستفحل الأمر أكثر..

أبحث عن البناية البسيطة التي يسكن بها عمي.. أتذكر تحمله لي أيام الثانوية حين انفصل أبي وأمي ليتزوج كل منهما بعد الانفصال ببضعة أشهر.. تكفل عمي بإيوائي فترة الثانوية، لم أقبل بعرض بقائي معه فترة دراستي الجامعية أيضًا.. ذهبت، بحثت، اشتغلت، تخرجت، سافرت.. كل هذا في تتالٍ غير منطقي.. هذا العالم غير مفهوم أكثر لمن يحاول فهمه..

يدلني أحدهم مشيرًا إلى بناية عالية من خمسة عشر طابقًا.. أخبره أن البناية تتكون فقط من ثلاثة أدوار.. فيبتسم لجهلي:

ـ العمارة اتنكست وبنوا البرج ده مكانها..

أشق الطريق حتى نهايته لأجد برجًا عاليًا من المفترض أنه قام على بقايا ذكرياتي الجميلة التي قضيتها في بيت عمي؛ البواب بجلبابه يجلس عند المدخل، أسأله عن عمي، فيجيب:

ـ الدور العاشر يا بيه.. وخلي بالك مفيش أسانسير.

الحياة رغم تقدمها لم تجعلنا قط أكثر راحة.. من باب الفضول سألت:

ـ ليه مفيش أسانسير؟

ـ صاحب البيت متفقش مع السكان فحلف يمين تلاتة ما هو مركب أسانسير..

الحوش ضيق، مكتوم.. تذكرت لفحة الهواء البارد التي كانت تصدمنا حين ندخل في عز الشمس إلى البناية، السلالم دائرية واسعة رحبة، يدخل الهواء عبر التصميم الهندسي المُحكم ليمدنا بدورة هواء مستمرة لا تنقطع صيفًا ولا شتاء، درجة الحرارة داخل البناية أقل من الشارع بحوالي سبع أو ثمان درجات..

مكان الأسانسير فارغ، تتكدس فيه أكياس الزبالة في انتظار عامل النظافة كي يأخذها، السلم بالكاد يستوعبني، لو نزل أحدهم الآن لكان لزامًا عليّ أن

أتنحى كثيرًا كي يمر عبر الممر.. لحسن الحظ لا يمر أحد.. الأصوات تنبعث من التلفازات، شتائم ضيفي برنامج ما، أغان ضاجة كلماتها بشعة، صوت فيلم عربي قديم يبدو أنه "غزل البنات"، أعرفه من صوت يوسف وهبي وهو يفترض جدلًا أن الريحاني يحب ليلى بنت الباشا فترد في صفاقة:

ـ إزاي يا أستاذ؟

أشعر بدمعة الريحاني المركزة وكأنها دمعتي.. أتذكر لحظته الأخيرة وهو يحرك طربوشه إلى الوراء مستشرفًا المستقبل في مشهد يزيده جمالًا تداخل صوت عبد الوهاب.. يقشعر بدني، أشعر بحنين جارف لشيء لم يعد موجودًا، هل أخطأت الطريق؟ أعلم أني لو جئت بالفيلم وشاهدته لما شعرت بنفس الإحساسات التي تنتابنا في لحظات من التكثيف والشفافية والعمق، هذه اللحظات لا يمكن استنساخها ولو شاهدت الفيلم ألف مرة بقصد.. لابد أن تأتي هكذا: عفوية.. الدور العاشر أخيرًا، باب عمي. لم أجد الباب القديم المشقوق إلى نصفين أحدهما ثابت بمزلاج مرشوق بالأرض والآخر حر، يُفتح ليمرق من خلاله الداخل.. في منتصف الباب توجد ضلفة تنفتح لرؤية القادم.. لم تكن بعد قد اختُرعت العين السحرية، نحن لا نحتاج لسحر العدسات كي نعرف من ببابنا.. الكل مرحبٌ به، والباب مفتوح يوميًا في ساعات الذروة ليدخل من يدخل من الأهل والجيران والأحباب، الناس تدخل أولًا ثم نتعرف عليها فيما

بعد.. هذا باب للتواصل أكثر منه للانعزال.. أزعجني أني لم أر اللوحة الصغيرة المكتوب عليها اسم عمي بخط ديواني جميل يدل على مزاج فنان حقيقي كتبها في ساعة وحي..

حل محل الباب القديم باب جديد، بل بابان، أحدهما خشبي مصفح والآخر حديدي.. الباب المصفح متروس داخل الحائط، ذو ألسن ممتدة إلى قلب خرسانة مسلحة.. أشياء كثيرة تغيرت بعد الثورة، لا يمكن حصرها قط..

أضغط جرس الباب.. أسمع صوت أقدام تقترب.. أحدهم يتطلع عبر العين السحرية..

ـ مين؟

ـ أنا أحمد..

يتراجع صوت الأقدام لتحل محلها خطوات قدم واثقة، تبدو خطوات عمي.. يسأل بصوت أغلظ:

ـ أحمد مين؟

ـ أنا أحمد ابن أخوك يا عمي..

بفرحة يشرع في فتح الباب.. يشد سلسلة قصيرة، ثم قفل ثانوي بجانبها.. ثم يبدأ في دس المفتاح لفتح القفل الأساسي.. أعد معه.. واحد .. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة.. ستة..

ست تكات لينفتح أخيرًا الباب.. هل هذا منزل عمي؟ أم سجن حربي؟

*****

فاصل (1)..الأطلال

سألته: وما هى أغنيتك المفضلة؟

قال: الأطلال

- وما أكثر الأبيات قربًا لقلبك؟

- إنه البيت الذي لم تغنه أم كلثوم على أى حال.. ذاك البيت الذي يقول: ضل فى الأرض الذي ينشد أبناء السماء... أى روحانية عصرت من طين وماء؟!.

قالت فى ضيق مكتوم: ومما غنته أم كلثوم؟!..

قال: لست أنساك وقد أغريتنى بفم عذب المناداة رقيق..

قالت فى نفاد صبر: أولا يعجبك إلا كل ما هو سوداوى ويميل إلى الكآبة؟!!

أين أنت مثلا من هذا البيت الرائع (وعدونا فسبقنا ظلنا)..

قال: إن إبراهيم ناجى فى شطرك هذا يختلس الفرحة والضحكة من الخيال.. فهل يسبق الإنسان ظله إلا فى حلم؟!.. إن أكثر الأبيات خيالًا ذلك المنتشي بالأمل.. لكن الواقع هو أنه "ما بأيدينا خلقنا تعساء".. فهذه هى بعينها الحالة التى عاشها ناجي وقت نظمه هذا القريض.. ثم أوليس شطرك هذا وسطًا ما بين (يا فؤادى لا تسل أين الهوى) وبين (يا حبيبي كل شيء بقضاء)؟!.. إنه إذن استثناء بين مأساتين.. والاستثناء ليس حقيقة كاملة فى فهم الإنسان..

قالت فى ضعف واستسلام: ولكنى أحبك..

قال فى هدوء تام:

- ولذلك فانا أحيا، ولذلك فأنا أختلس السعادة عنوة من تلك الحياة أقدمها بين يديك، ولهذا أنا أخلص لكِ، وأضحى راضيًا محاولًا ألا أجعل أحدًا من بعدنا يقول عن حبنا ذاك أنه (كان صرحًا من خيال فهوى)..

(اقتربت منه أكثر، ضمها ضمة شديدة فمالت برأسها على كتفه، وسكتا)

فى حين تابعت أم كلثوم شدوها:

يقظة طاحت بأحلام الكـرى

وتولى الليل والليل صديـق

وإذا النـور نذيـرٌ طـالـعٌ

وإذا الفجر مطلٌ كالحريـق

وإذا الدنيـا كمـا نعرفـهـا

وإذا الأحباب كلٌّ في طريق

*****

كورنيش العجائب

تمل كثرة الإلزامات والإكراهات التي تعيش فيها، بحيرة من الطين تعيقها وتعرقلها عن التقدم ولو بمقدار خطوة، تستشعر هياجًا في عقلها، وفورانًا في قلبها، لابد من التحرر ولو قليلًا، الانعتاق ولو بمقدار ساعة، يجب أن تثور ولو كانت ثورة مؤقتة سرعان ما تتلاشى، ويتلاشى أثرها..

في الجنوب تشتد الشمس، ومعها طبائع الأشياء.. هي نبتة ملائكية، رعاها ملاك في ظل دوحة عظيمة، أعلى نبع ماء صاف.. تقدس الشمس أمها، والقمر خالها.. الليل حريتها الوحيدة، تميل على نبتة الياسمين تبثها أحزانها وأفراحها..

اليد التي طرحتها لم تحسن اختيار مكان الطرح، وضعتها على عجل، ولولا الملاك الحارس ما خرجت بطبيعتها المتفردة مخالفة أكوامًا من البشر ذوي الأيدي الخشنة والملامح الحادة والقلوب الصخرية..

نظر الله لها بعين الخصوص، فخرجت وسط عموم المأساة متفردة في رقتها وعذوبتها..

ألزموها بكل ما تطيق وما لا تطيق، أكرهوها على الجيد والرديء على حد سواء.. لم تجد نفسها في كل اختياراتهم، حماقة صغيرة تتبناها بمحض إرادتها خير من حكمة الفلاسفة أجمعين.. "دعوني أتحامق، ما لكم وما لي"، صوت باطنها المسلوب يقول..

ستخرج اليوم عن خط سير الحياة الجنوبية، ستتجاهل الامتحان، ستذهب إلى الكورنيش حيث تجد نفسها في تفاصيل الطبيعة..

تكره مادة المناعة التي تُجبر على الامتحان فيها، هي أبغض المواد الدراسية إلى قلبها.. علم المناعة يُطلعها على الصراع ما بين أجزاء الطبيعة وبعضها، البقاء للأقوى، وهي لولا جمالها لما بقت.. أحيانا البقاء للأجمل، للأرق.. يذكرها هذا الفرع بالسفالات السياسية، الحروب، الحملات، وكل ما لا يتفق مع طبيعتها المسالمة، فقد خُلقت وفي يدها وردة؛ لماذا لا يتحد الإنسان والجرثوم لأجل دفع عجلة الحياة بدلًا من تعطيلها؟

تحب علم النبات والحيوان، يُطلعانها على تراكيب أبناء الخال والعمومة.. تفهمهم جيدًا كي تقترب منهم بحب أكبر وأمان أكثر.. تلمس نبتة المستحية، فلا تستحي.. تزدهر أكثر في يدها.. هي منها، خروج على القاعدة يليق باستثنائية وجودها..

تنزل، تتوجه لا إلى لجنة الامتحان لكن إلى كوة النور، رمز ثورتها، النيل الحر المنساب فلا يحد طموحه شيء.. يضيع في مساراته ثم يجد الطريق، يتشتت ليتحد.. يختار طريقه مهما تشابهت الطرق حوله.. يلف حول الجبال ولا يصطدم بها.. يراوغ، يتحايل، تقابله الجنادل، يقفز منتحرًا ليحيا من جديد بأمل وطموح جديدين.. يعلم أن نهايته هناك في الأفق حيث يتحد ببحر علقم،

لكن تلك هي طبيعة كل شيء.. لابد من النهاية لتقييم البداية والمسار.. يجب أن نسير كثيرًا، لكن كل حين لابد من تقدير ما قطعنا.. وحين نصل تنتهي الرحلة بالتأكيد.. استمرارية الرحلة عبث.. النهاية حتمية..

تأخذ سيارة أجرة، تطلب من السائق التوجه إلى كورنيش النيل، يتشكك فيها، لا توجد فتاة مؤدبة تتجه في هذا الوقت – أو أي وقت – إلى تلك البقعة حيث الشكوك تحوم وسوء النوايا تترع..

موعد غرامي بالتأكيد، وفي هذا القيظ الشديد.. لعنة الله على شباب هذا اليوم، بلا مبالاته.. تفهم من حولها كل شيء ولا تعلق، ستصفع المجتمع على قفاه، ستذهب وتقف وتتحمم بنور الشمس أمام الجميع؛ ومن لا يعجبه، فأبواب الجحيم سبعة، ليتخير منها أي باب يشاء..

ستقترب من الناس وتسمع همسهم، وتؤكده لهم.. نعم أنا هنا في موعد غرامي خاص يا بهائم.. أحاول البحث عن ذاتي التي حطمتموها فانتثرت..

تصل، تنزل، تدفع الأجرة بنفس راضية.. فهذا السائق أول من تحدتهم وفازت عليه.. ترى النيل على البعد، لا تشعر بحركته إلا حين تقترب منه.. يتحرك بخطوات متأنية جدًا. سيقطع الرحلة في يوم أو ألف يوم، لا يهم.. هو مسئول عن الحيوات الهائمة في حشاياه.. النيل هو أستاذها الأعظم، تتخذه مثلًا أعلى

في المثابرة والإصرار.. يمثل لها النهر بيت فرناندو بيسوا العظيم: نعم سأفعل، وساعة إثر ساعة تمر الأيام..

يتهامسون، يتكلمون، يتسافلون.. سأرتكب حماقتي حتى النهاية، حتى الثمالة، حتى الموت لو شاءوا..

تتوحد بمكونات المشهد الجميل الذي يشوهه مرور بعض البشر.. تلتحم في عناق مع الأشجار السامقة والنباتات العالقة والوردات الزاهية المتأنقة.. تتذكر بيت شعر لألبرتو كاييرو يقول فيه: هل امتلاك الوعي أرفع من امتلاك اللون؟ تنسى وعيها، تفكيرها، تتحد مع الكل في صمت تام ودون أي أنشطة ذهنية تعيق الانفلات.. ربما لا يفكر النبات مثلنا، لكنه صادق في ثبوتيته الخالدة، يتلون بأجمل الألوان ويتزيا بأحلى الحلل دون وعي منه، على سليقته.. نفكر نحن كثيرًا ونخلق القوانين والأعراف والتقاليد والصح والخطأ، والحلال والحرام والواجب والخيانة، وننسى اللون الجميل نفسه.. يشغلنا الفكر عن الصورة، مع أن الصورة هي قمة الفكر، والوعي..

ينحطون في سفالاتهم.. الغزال الشارد يغري الحقير من الضباع.. الكسيح والمجذوب والقبيح.. هي ليست شاردة، هي متوحدة لكنهم لا يفقهون.. يتجمعون حولها في محاولة لوأد الحلم، الثورة.. ثمة ألف وردة وآلاف الفراشات في محيطها، مجموع قوة جمالهم أقوى من مجموع غشم هؤلاء المسوخ..

تستطيع في توحدها مع الطبيعة أن تطبق عليهم جبلين، أن تغرقهم بموجة من أمواج النيل لو شائت، أن تهيل عليهم الأشجار العملاقة والنخيل شديد البأس.. لكنها لا تستطيع أن تواجه القبح بقسوة، والحقارة لابد أن تعالجها بسمو وتعال..

في تحد تام لكل قوانين الطبيعة التي درستها وذاكرتها وأحبتها، تداعى جسدها الطاهر أمام الحشد المغتصب خلوتها إلى آلاف الفراشات الجميلة، فراشات بألوان نعلمها وألوان لا نعلمها، فراشات كبيرة وصغيرة.. اتجهت الفراشات إلي منتصف النهر حيث كومة عظيمة متماسكة من نبات ورد النيل.. حطوا فوق الكومة وتحرك بهم النهر في اتجاه رحلته..

من الضفة الأخرى كان سرب عظيم آخر من النحل في طريقه إلى ذات البقعة.. بمجرد وصول السرب هبط فوق الكومة التي أنّت من الثقل قليلا.. تزاوجت كل نحلة مع كل فراشة في مشهد عظيم جليل مقدس.. أطلق الكروان أغرودته، وأبو قردان حياهم بصوته الجميل..

أحاط سمك الشبوط بالكومة من كل اتجاه،. يمد فمه عبر سطح الماء مباركًا الزيجة المباركة.. تأنى النهر وخفف من سرعته، لابد من الاحتفال بهذا العرس، عرس انتصار السماء على الأرض..

*****

فاصل (2) دليل جديد

قال لي بينما كنت أتابعه، محملًا بكل آلام هذا الكون:

- أتدرين؟ عندي دليل شخصي جدًا، قوي جدًا على وجود الله لم يُتح لأحد من الفلاسفة صياغته..

قلت، محاولة امتصاص صدمته بفقدان والده القريب جدًا إلى قلبه:

- وما هو، احك لي! أحب سماع أدلتك.

فنظر بعينين مغرورقتين بالدمع مخبرًا:

- إن مثل هذا الأب العظيم جدًا لا يمكن أن يصير إلى فناء، لا يجوز أن يمسي عدمًا، الطبيعة لا تجرؤ على تحطيم أيقوناتها هكذا بسهولة في لحظة من لحظات طيشها..

خطاب إلى إليزا

اووه يا إليزا، لقد جرى العمر يا صغيرتي.. سبعة وتسعون عامًا من التعب والإرهاق والجهد الضائع، وبعد كل ما فعلتُ بالحياة وفعلت بي، ها أنا أخيرًا أكتشف طاقة النور بداخلي، لقد قررت يا طفلتي تعلم القراءة.

ولدتُ عام 1898، لم يكن وقتها تعلم الكتابة والقراءة بشيء ذي بال.. لم أكد أبلغ السادسة عشر حتى اندلعت الحرب الكبرى الأولى، كنا مشتتين جدًا، طاقاتنا وجهدنا المبذول تبتلعه آلة الحرب الشنعاء، نبذل أقصى ما نملك من وقت وطاقة لكي يتجسد ذلك كله في صورة صاروخ يخرج من فوهة مدفع يطرح العشرات من القتلى.. ما معنى تعلم القراءة أو فك الخط في هذا الجو المعبق بالموت، المختنق بروائح البارود والنيران والدخان المنطلق إلى أعنة السماء؟.. ردي يا إليزا، حاوريني!

المهم، انتهت الحرب مخلفة عشرة ملايين ضحية، لم أكن منهم.. وفرتني الحياة، للأعوام الثلاثة الباقية من رصيد عمري.. خرجنا من الحرب منهكين، فائزين، لكننا بالحق منهزمين نفسيًا.. ما معنى الانتصار الذي تقتل فيه بضع ملايين نسمة؟ إنها خسارة فادحة، لم يدركها الساسة الذين جرى لعابهم حين شارف القرن على الانتصاف، فأشعلوا حربًا أكبر، من حيث الإمكانيات ومن حيث قدراتها التخريبية.

وسط كل هذا لم أكن أدرك سرًا ولا معنى لحياتي يا إليزا.. رجلٌ أسود لا قيمة له، أقرب للعبيد منه إلى البشر السويين.. آكل وأشرب ولا أفهم.. أنام وأستيقظ ولا أدرك.. أتزوج وأنجب ولا أستوعب شيئًا.. كالحيوان عشت عمري بأكمله، لا هدف ولا غاية ولا طموح.. مجرد أداة في يد الزمان والسادة. لم تفتني فرصة واحدة في الحقيقة، بل عشرة آلاف فرصة، بل عشرة ملايين فرصة.. فاتني ما لا يعد من الفرص والضربات الفارقة.. كل التحولات الخطيرة التي كانت من شأنها تغييري إلى حال أفضل، ضاعت أو أضعتها.. فاتت، أو فوتّها.. ماتت، أو أمتها.. زالت أو أنا ربما أزلتها.. أدرك أنك تريني أحمقًا.. عندك حق.. لكن اعذريني ظروف زماننا كانت مختلفة.. المشهد التبس علينا، تداخل، تمازج مع مشاهد أخرى.. لا تنسي أننا جيل السيريالية والدادية، حيث كنا نجلس في دورة المياه نشاهد الموناليزا ونحطمها بعد أن نملّي أعيننا منها.. تضحكين؟ حقك.. حقك يا صغيرتي.. أنا أيضا أبتسم حين أتذكر كل هذا.

لكن المهم يا إليزا، أعترف إليك أني قد انتهيت من أمر عظيم جدًا.. لقد تعلمت القراءة والكتابة يا حلوة، بل لقد ألفت كتابًا، أنا ابن ال 101 عام.. بعد قرن يا إليز أدركت بأن الحياة جيدة جدًا.. لا يرتشف الكثيرون منها كما فعلت، لكني أؤكد لك إنها حلوة جدًا.. مرارتها الوحيدة في أنها لابد وأن تنتهي يوما ما.. لو

أنها سرمدية! لو أني تعلمت الكتابة منذ 90 عاما فقط!! أتدرين؟ أعتقد أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان.. أنا راض جدًا، راض عن حياتي، وعن النور الذي انبلج في أخرياتها.. هذا كتابي بين يديكِ، تصفحيه واقرأيه، فكل كلمة منه كي أكتبها عشت مائة يوم.. الكلمة في هذا الكتاب نحتٌ في صخر الحياة.. فتمعني وتأملي بقدر المستطاع..

مخلصك المسكين،

جورج داوسون

*****

فاصل (3) أريدها حياة

جلسنا نستدفئ بخيط لهب خفيف ينبعث من كانون نحاسي محفوف بلوازم صنع القهوة.. الغيوم منسدلة تحجب ضوء الشمس، السماء مترددة بين إرسال المطر وإمساكه، فينفلت بين الحين والحين رذاذ خفيف ما إن يبدأ حتى ينتهي.. سألتني، وأجمل ما فيها أنها تسأل دوما:

ـ قهوتك؟

ـ ما بين المضبوطة والزائدة..

ـ بمعنى؟

ـ أريد أن تمتزج حلاوة السكر بمرارة القهوة فلا أكاد أبين من أيهما شيئًا.. أريد أن يتفاعل الحلو والمر، يتشاكسان، يتصارعان، يصطرعان، فلا يصرع أحدهما الآخر.. أريد أن يحتار لساني حين يتذوق، وعقلي حين يترجم الطعم، فلا ينفذا لقرار.. هل هذه مرارة؟ هل هذه حلاوة؟ أم شيء بينهما، فوقهما، دونهما؟ أريدها مربكة، معطلة، متسامية في حلاوتها ومرارتها أو في طبيعتها الثالثة.. أريد أن يحمل قدح القهوة كل الاحتمالات الممكنة ما بين الحلو والمر، موزعة توزيعًا محسوبًا، مضبوطًا، متجانسًا.. أريد قدحًا من القهوة حين يسقط لا يكون سقوطه خيرًا، بل نارًا وشرارًا وشرًا مستطيرًا، فانقلابه انقلاب للحياة ونهايته حد لهذا العالم.. أريدها عالمًا، أريدها حياة عادلة..

وضعت بين يدي البن والسكر، ثم قالت:

ـ ها هو كل شيء بين يديك، فاصنع لنفسك ما شئت، فأنت قد أرقتني..

*****

سنة الحياة

بالتوازي، ينقص حيّنا أسبوعيًا ويزيد.. تزدحم طرقاته بصوانات العزاء واجتماعات كتب الكِتاب والحنة والسبوع.. يلتحم صوت المقرئ في عقلي بأغاني المهرجانات.. لابد وأن يسد الفراغ الحادث بامتلاء جديد.. مع الوقت تتبدل ملامح الحي، تختفي أسماء وتظهر أخرى، تتوارى أسماء مثل مجدي وسمير وعفاف ليحل محلها إسلام وجورج وجودي.. استقطاب جديد.. كل طرف يشد الحبل أكثر وأقوى..

ينطلق صوت الرجل المقبض يحثنا على الحضور من أجل صلاة الجنازة وعقد القران..

في المسجد، رويدًا رويدًا تجد أصحاب الصف الأول يتزحزحون إلى الخلف صفًا، اثنين، ثلاثة صفوف.. الطريق الذي يقطعونه من منزلهم إلى المسجد في دقيقة، أصبحوا يتعثرون فيه مدة ربع ساعة.. يحاولون النزول باكرًا عن ميعاد الصلاة، لكن الغلبة لذوي الهمة الأصحاء.

مع الوقت يخرجون من الصفوف تمامًا ويلحقون بأترابهم على الدكة الخلفية.. نتأملهم بحدب، ثم فجأة ينقطع الحاج إبراهيم عن المجئ تمامًا، ثم يليه الحاج فؤاد، فالرجل الطيب عم شحتة.. تفرغ الدكة لفترة لكنها سرعان ما تمتلئ مجددًا..

في الجزء الخلفي من الساحة الواسعة لمسجدنا نجد الأطفال يلهون في انتظار انتهاء آبائهم من أداء الصلاة.. هؤلاء فيما بعد سيعمرون الصفوف كلها من جديد، ثم يغلبهم العالم فيتقهقرون إلى الدكك والكراسي ثم يتبخرون في النهاية..

هكذا تعالج الحياة تماسكها بذكاء على حساب تفككنا النفسي نحن..

أتذكر الحكمة القديمة التي تقول: في كل لحظة من اللحظات يموت جزء منا ويعيش الكل، وفي كل ثانية يموت واحد منا وتبقى الحياة..

يحضرني صوت نعيمة عاكف الجميل مشديا: أهل الحي يا أهل الحي شوفوا الدنيا، كنا إزاي وبقينا إزاي في لحظة وثانية..

أبتسم ابتسامة مبللة بدمعة مترددة، ثم أتجه ناحية صوت يناديني..

*****

فاصل (4) سوريال

أحكم القبض بكفيه على رأسه.. بدأ يشدها لأعلى بقوة رهيبة.. عاندته الجذور المغروسة عميقًا بداخله.. أحس أن عموده الفقري كاد ينخلع من منبته أسفل ظهره.. لكن الجلد المحيط برقبته بدأ في التفسخ، وعضلات رقبته تمزعت.. لازالت العظمة التي تستند عليها الجمجمة معشقة بإحكام، لكنه لم يتوقف عن الشد والسحب لأعلى.. انخلعت في النهاية.. دحرجها على الأرض.. شذب الأجزاء التي تمنع الكروية الكاملة للرأس.. الأنف والأذنين.. بدأ يداعبها بقدميه.. صنع هجمة مرتدة رائعة في مباراة هو اللاعب الوحيد فيها.. قذقها بقدمه اليمنى بقوة.. اصطدمت بعارضة المرمى.. قذقها مرة أخرى.. هزم قانون الاحتمالات بعدد المرات التي يرطمها فيها بالعارضة.. تهشمت عظام الرأس ولم يحرز هدفًا واحدًا.. انتعش رغم خسارته حين شعر أنه رغم كونه خاسرًا إلا أنه استطاع نفض الأوهام وعشش العنكبوت التي كانت تقبع في رأسه.. الآن والآن فقط يستطيع جسده أن يعيش حرًا بعيدًا عن جبرية الخضوع لرأس طاغ..

*****

الشاب الذي فقد والده مرتين

يموت أبوه قبل أن تبدأ القصة. لابد لكل قصة من أن ينقصها عنصر واحد هام وأساسي جدًا. لا يؤثر على نمو القصة ومسيرها، لكنه بالتأكيد يؤثر على طعمها ومذاقها. لغير ما سبب مفهوم لم يقرأ والده كلمة واحدة له. رغم أن كلماته كلها تهيم ما بين الحضور والغياب، الوجود واللاوجود. هي تجل مكثف لحالة مزمنة من الفقدان والاحتياج الشديد إليه.

لو عاش الوالد لما أصبحتُ كاتبًا، ربما. لو عُرضت علي هذه الصفقة - حياة الأب أو التأليف- لسحقت قلمي ولرضيت بدزينة من السنوات يعيشها معنا، مكتفيًا به كأحد أجمل وأصدق وسائل التعبير على الإطلاق. التعبير عن الامتنان العميق من قلبي لكل المخلوقات.

يريد أن يُعلِمه أنه أصبح واعيًا جدًا لدرجة أنه أحب "همفري بوجارت" و"بيتر كاشنج" و"جريجوري بيك".. ألم يكن هو قديمًا يجلس أمام قناته المفضلة يشاهد هؤلاء الأبطال يتحركون في بطء شديد ممل بالنسبة لطفل لم يعتد سوى الإيقاع الحركي الصاخب المليء بالصراخ والضرب والقتل والموت. ما الذي كان يجذب الأب في هذه الأفلام؟ لقد فهم كل ذلك جيدًا، استوعب أن التفوق هو في الأداء الرزين الملغز لأبطال تلك الأفلام، لكن أين هو كي يناقشه في تفاصيل عبقرية "هيتشكوك" وانتقاله من نوعية أفلام "ريبيكا" إلى "سيكو"..

ثمة تفاصيل كثيرة عنده حول أداء "جانيت لي" المميز جدًا.. يكاد يصيغ نظرية في النهاية المفتوحة لفيلم "الطيور".

لقد عرفت يا أبي أن "تيبي هدرن" بطلة الفيلم هي جدة "داكوتا جونسون" بطلة فيلم "خمسون لونًا للرمادي"، أتريد أن تشاهد هذا الفيلم معي؟ حسنًا دعنا فقط نكون وحدنا، هذا الفيلم فضيحة.. أتدري يا أبي، لقد شاهدت "النوافذ الخلفية" واستمتعت به جدًا، "جيمس ستيوارت" هذا بلوى مسيّحة.. أتذكر يوم رأيتك تشاهده بكل تركيز على قناة تي سي إم. ربما لا تذكر، أنا أذكر جيدًا..

ينقص مكتبته شيء هام، نظرة والده لها وإعجابه بها. يعلم أن والده كان محباً للقراءة، لكنه كان يستعير الكتب ويرجعها لأصحابها.. ذات يوم كان الظرف الاقتصادي مختلفًا، والكتاب رغم أنه كان بعشرة صاغ إلا أن أحدًا لم يكن يملكها. عثر ذات يوم على مفكرة صغيرة لوالده فيها خواطر ورؤى عن كتاب الجمهورية لأفلاطون.. "أبي كان يقرأ أفلاطون؟ ياللروعة.. سأحب أفلاطون أكثر".. يكتب في المفكرة عن الحب الأفلاطوني، حب الفكرة من وراء المادة.. "هذه الفكرة يا أبي كثيرًا ما استوقفتني"..

يتخلص من رأسه.. يقوم.. يذهب لغرفته.. يتمدد.. تأخذه سنة عميقة من النوم.. يستيقظ وهو نائم.. يخرج من غرفته.. يجد والده في غرفة المعيشة جالسًا مرتديا نظارته ماسكًا في يده بعض قصصه يقرأها.. يفرح جدًا.. يحادثه:

ـ أبي أنت طبعًا تعلم الفرق بين القصة القصيرة كما كتبها إحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله ونجيب محفوظ وكما كتبها يوسف إرديس وأصلان وعلاء الديب وخيري شلبي.. إنه الفرق بين الشكل الكلاسيكي والشكل المكثف ما بعد الحداثي..

يرمقه بنظرة من وراء زجاج النظارة معناها: ربما لستَ يا ولدي نجيب أو يوسف إدريس.. لكنك في طريقك لأن تكون فيما يبدو..

أفرح من فحوى النظرة.. أتوجه سريعًا إلى مكتبتي.. أبحث عن مجموعة قصصية كنت قد نشرتها منذ فترة.. أقلب الدنيا كي أجدها.. الفوضى التي تعبث بمكتبتي ترهقني كلما هممت للبحث عن كتاب.. حتى كتابي.. لا يوجد تمييز.

بودلير، كافكا، طه حسين، العقاد، ساراماجو، موراكامي، بوكوفسكي.. استغرقتُ وقتًا طويلًا في البحث.. ها هي أخيرا.. مجموعتي تحت أكوام لكل هؤلاء.. تذكرت أني وضعتها هكذا لعل كلماتهم تبهت بكلماتي.. أضحك لسذاجتي.. أفتح المجموعة.. لم يبهت شيء على شيء.. كلماتي كما هي.. الأمور

لا تأتي هكذا بسهولة.. قال لي أبي قديمًا: "لا بد أن تسيح كلماتهم كلها أولًا في مخك أنت، لكي تجد كلماتك الخاصة التي فيها منهم جميعًا، وليست كلمات أي واحد فيهم".. هو لم يقل في الواقع هذا ولكنني أتخيل لو أنه قال، ربما يقول الآن عندما أخرج له وأضع مجموعتي بين يديه.. "خلي بالك، هذا رجل قارئ عظيم لأفلاطون، سيمرمطك"..أمتن للصوت الذي نبهني لهذا الأمر وأبعده عني، فرحًا جذلًا بإهداء كتابي لأبي.. أبي أخيرًا أهدي له كتابي.. أتذكر كل من أهديت لهم كتابي من قبل وألقوا به من شبابيك سياراتهم.. الأكثر تسامحًا وضعوه في مكان خفي لا يعلمه أحد، ولا هم حتى.. بالطبع لم يقرأه أغلبهم.. من يقرأ لكاتب جديد يتلمس طريقه في عالم مكدس بالكتب والكتاب.. لا أحد سيفعل بصدق غير أب واع.. سيسعد أبي من دون شك بإهدائي الكتاب إليه بشكل خاص..

يخرج إلى غرفة المعيشة، يجد الأوراق ملقاة على الأرض..يبحث عن والده. ربما في غرفة النوم، الحمام، المطبخ، البلكون.. ليس في أي مكان..يجد النظارة وقلمًا وورقة مكتوب فيها: تلمس يا بني طريقك، فأنت على جادة الصواب.. بخط رقعة كما عهد خط أبيه دومًا.

أدور حول نفسي في شبه دوامة.. ثمة الكثير جدًا يا أبي.. عندي ثلاثة آلاف موضوع أريد أن أكلمك فيهم جميعا..

يستيقظ فجأة.. يأخذ نفسًا عميقًا.. صدره مطبق.. يتعرق بشكل غزير.. يشرب جرعة ماء.. يقوم بسرعة إلى مكتبته.. يلقي نظرة في طريقه على الصالة.. لا يجد شيئًا.. يدخل المكتبة.. يبحث عن كتابه.. لازال متخفيًا في مكان ما.. يجده بعد عناء.. يضعه في مكان خاص بارز جدًا.. يظهره بوضوح تام.. لعله في المرة القادمة لا يضيع فرصة غالية جديدة..

*****

فاصل (5)الملحمة

كان كل واحد منهم يبحث عن الطرف الآخر، نقطة الارتكاز. طالت فترة البحث، وغامت الوجهة في بعض الأحيان، واختلط الأمر مع أطراف أخرى تم اكتشاف أنها ليست الأطراف الحقيقية المكمّلة.. ضاع الأمل عند لحظات معينة، وضعف وهان، وامتلك اليأس الزمام لفترات طويلة، ظنوا خلالها ألا انجلاء لغمة ولا كشف لضر..

نسوا أنهم كانوا يبحثون.. فتوقفوا عن البحث وتحولوا لآلات تتحرك عشوائيًا.. فقدوا مذاقات الأشياء.. لا الحلو أصبح يثير حلاوة ولا المر أصبحت تعافه النفس.. فرق بين أن تنتقي النكهات لتنتشي، وبين أن تزدرد لتعيش، فقط لتعيش.. وعاشوا !

بعد طول أمد حدث كل شيء، والتقوا جميعًا. أدركوا المعنى، وأحسوا بعمق اللحظة. كانت لحظة انتفاء، انتفاء لكل شيء، نرفانا عالية، ترانسندنتال، علو.. فهموا أن العمق حدث لأن المعاناة كانت مكثفة، ابتنوا مدنًا من الأحلام وافترشوا السماوات أسرّة وأبسطة يلهون عليها، حولوا كل قبح لجميل وأعادوا تشكيل محيطهم ومعه انطباعاتهم وإحساساتهم التي انطبعت بصبغة الألم.

وحين تم كل شيء وبدأت البداية الحقيقة، جاءت موجة عالية، فأذرت كل شيء.

*****

بريمن

في هذا المكان تقابلنا عصر ذات يوم.. أتذكرين؟ كنتِ تجلسين داخل أحد الكافيهات الهادئة كما كل شيء هناك، "الشرنقة" هكذا هو اسم الكافيه.. أما أنا، فكنت أسير على غير هدى، أنظر إلى الأشياء بانبهار.. تفاجئتِ بلغتي العربية ولهجتها المصرية المميزة، وتفاجئتُ أنا بلكنتك اللبنانية المحببة.. الاندماج الذي تمنعه إحباطات السياسة والاجتماع في بلادنا، تحث عليه المدنية المنظمة، الوديعة هنا.. استطعنا أن ننفذ عبر بعضنا البعض، فقط حين توفر لنا الظرف الطبيعي جدًا.. قلتُ لك يومها: كلما نظرت لكلب في بريمن، تخيلت أنه يحفظ جوته عن ظهر قلب، أما القطط فقارضات شعر عظيم، ملحمي وغنائي. .الطيور لا تغرد، إنها تعزف هايدن على طريقتها.. السماء لا تمطر، بل ترقص على إيقاعات السيمفونية الدائرة.. تداخلت أحد اللوحات المعلقة بالكافيه لكارل سبيتزفج الرومانسي، مع المعمار الفخم المهيب، القوطي والحديث على السواء، مع جلال طلتك النورانية فشعرت كأني أطرق أبواب الجنة، فتفتح.. كتبت يومها مائة صفحة من روايتي التي تعطلت كثيرًا في مصر بسبب الظروف غير المواتية على الإطلاق.. لم أكتب في حياتي أكثر من خمس ورقات في اليوم.. أخبرتك عنها – روايتي–، وكيف كافحت كي آخذ أجازة تفرغ من أجل إكمالها.. المخطط المبدئي – هكذا شرحت لك –يقول أنها ستقع

في حوالي 65000 كلمة.. عمل ضخم، لم أنجز منه قبل مجيئي إلى بريمن ورؤيتك سوى 3 في المائة..

لبنانيتك الآسرة جعلت كل الأشياء من حولي ناطقة، السماء تُملي علي وأنا أكتب.. بمجرد أن يتعقد حدث أشعر برأسي يتشكل من جديد، يتحول، يكبر، يضيق، ينبعج، تصعد عصارة باطنية إليه تمده بطعام ملائكي يغذي الروح والوجدان، فتنفك العقدة وتسلس الرواية مرة أخرى.. الألفاظ تتداعى من تلقاء ذاتها، أحاول تبديل بعضها بالتعبير الأجمل والأدق فأكتشف أنها جاءت في أكمل صورة وألطف تعبير ممكن.

أخبرتك أيضًا أن الخيط العام للرواية تغير تمامًا في بريمن.. الغضب الشديد والحنق القاتل والأعصاب التالفة، كل هذا تبدل.. وذلك بطبيعة الحال غيّر في تصويري للشخصيات والعقدة والحبكة الروائية.. بل غيّر في البناء والأسلوب كذلك.. حدث كل شيء كثيفًا مركزًا، ومقطرًا، كقصة قصيرة لتشيخوف كتبها متحديًا موباسان..

أنهيت الرواية في رحلتي.. رجعت إلى بلدي وفزت بجائزة مرموقة جدًا عليها.. لكن، ماذا عن روايتي الجديدة؟ كيف أكتبها دون تفرغ، ودون بريمن، وقبل كل شيء: دونك؟ هل أفكر في الانتحار الذي ارتكبه بطل رواية "تألق" لستيفن كينج؟ أم أن العالم سينشق لتبزغين لي كـ "ألف شمس ساطعة"؟..

فاصل (6) تناغم الأخطاء

أحيانا يعتقد أن تعويذة نحس خاصة به، قد ولدت معه.. تكمن في جزء ما من أجزاء جسمه المشئوم.. ربما مطبوعة حروفها على أنسجة كبده، أو على أغلفة خلاياه العصبية، أو في مستنقع أمعائه الغليظة، أو حتى في خلية دهنية تستقر بأحد جوانب مؤخرته الكئيبة.. لا أدري كيف يمكن أن تبدو مؤخرة ما كئيبة، لكن عمومًا ها هي مؤخرته مثال يمكن ترشيحه لذلك..

يسمونه في الحارة والحواري المجاورة بـ "المنحوس".. توفى والده يوم نزل، وماتت أمه يوم عيد ميلاده الأول.. كانت له أخت من أبيه حين علمت به قرّبته فمات ابن لها.. شاع عنه أنه نذير شؤم، فحاول الكل تجنبه.. بحثوا له عن شخص خائب الرجاء، ولموهما معًا في مكان واحد في غرفة بمنزل مهدم..

لم يذكر لنا المثل ماذا يحدث حين يجتمع منحوس متعوس على خائب الرجاء هذا، لكن يبدو أن تفاعلًا صفريًا يحدث بينهما.. المنحوس يميل بنحسه على خائب الرجاء الذي بدوره لا يقدر على شيء ولا حيلة في يده فيرتد النحس لناحسه ويبقى الأمر على ما هو عليه.. يصب أحدهما النحس ويبتلعه الآخر غير عابئ، فليس في الإمكان أسوأ مما كان.. حتى خيار الموت يبدو بشرى لمن هم في مثل حاله..

كان اجتماعهما معًا مما يسميه "تناغم الأخطاء" أو أحد تجليات تناغم الأخطاء الذي يحدث في الكون.. لا يجتمع صوابان قط في هذا العالم، وإن حدث فيكون اجتماعهما مبنيًا على مقدمات خاطئة جدًا..

من تجليات هذا الأمر قاعدة عظيمة تحدث له كل حين أو تحدث له بين كل حين وحين أحيانًا كثيرة.. سماها بينه وبين نفسه قاعدة "نسيان النسيان" أو نسيان أنك قد نسيت.. طبعا هي مزحة سخيفة لكنها رغم ذلك لا تنقذك من صاحب "الكشك" الذي تدخل عليه متثائبًا متثاقلًا، واثق الخطوة لتشرب وتأكل وتدخن، وبين كل فعل وآخر تسبه سبة صريحة أو مضمرة، بفلوسك كما يقولون، ثم تفاجأ أنك قد نسيت المحفظة في البيت، أو نسيت أنك نسيت المحفظة في البيت.. المصيبة الأكبر تنتظر حين تعده بالذهاب إلى المنزل لإحضارها، لتتذكر أنها نشلت أساسًا منذ يومين بكل ما فيها من فلوس، حين كنت تركب الميني باص الذي يقلك يوميًا من محطة نحس إلى محطة أخرى أختها..

هذا ليس نسيانًا طبيعيًا، هذا نوع من أنواع النحس المركب..

*****

أفكار سخيفة لتقضية أوقات الفراغ والحصول عليها

أضع الكتاب بعيدًا.. لم أعد قادرًا على استكماله.. غدًا ربما أفعل أو القرن القادم.. أنهيه في يوم أو في ألفية..لكن ماذا أفعل بكل أوقات الفراغ المتبقية تلك؟ أقابل أصحابًا لي يمسكون كتبًا، ويشربون قهوة، يتحدثون عن درويش، ويتأملون لوحات لا أفهم منها شيئًا.. يتقارعون بأبيات من الشعر، في حين أقف أنا باهتًا غير فاهم لما يجري..

لذلك ابتعت الكتاب الذي تركته منذ دقيقة لأحادثكم قليلًا.. على وعد أن أنهيه قبل أن يداهمني الموت.. اللهم إلا إذا داهمني الموت حالًا، فأكون مبرئًا من وعدي لكم..

عموما تعلمت منهم أشياء معينة أملأ بها أوقات فراغي، لكن شيئًا ما خفيًا يُفشل كل السبل الممكنة لعمل شيء "عميق"..

ذات يوم جلست لتفصيص لوحة رائعة على شاشة الكمبيوتر –لا أدرك سر روعتها – لكن هكذا قال أحدهم بانفعال بينما يحدّث صديقًا له متعصبًا لرسام آخر ويعشق لوحة أخرى اسمها على ما أتذكر "جرانتيكا"..

كان اسم اللوحة التي أتأملها "ألدوربراندينى ويدنج".. لم يفهم أخي الصغير – الغبي– ولا أختي الكبيرة – الجاهلة– فحوى الصورة.. أتعجب من

حماقتهما، ثم يفاجئني إحساس غريب حين أدرك أني أنا أيضًا لا أفهم شيئًا..
أجد متعة عظمى في فك شيفرات الأشياء، لي باع طويل في الألعاب الاستراتيجية التي أنهيت جميع مهامها على الكمبيوتر، فهل تعييني صورة ألدوربراندينية حمقاء؟ محال..

أراسل صديقي المتعصب للصورة فيطالبني بالنظر إلى الرجل الجالس على الأرض منتظرًا بشغف، في حين تقف فينوس بجانب العروس كي تقنعها بأن ليلة الزفاف ذات صبغة خاصة وأن مبادئ العالم المحافظة تنقلب ليصبح ما يعد رذيلة في ظرف معين، محمدة في هذا الظرف الحالي..

يسألني أخي: ما هذا؟

ألمح السخرية من بين كلماته أو من طريقة سؤاله المتبالِه..

ألكزه في كتفه: يا غبي، فينوس، عروس، زفاف، صبغة، ظرف، رذيلة، محمدة..
هل فهمت؟

ـ لا !

ـ ولا أنا والنعمة !

لما كنت أقود بعائلتي السيارة وأظل أتأمل أحد عمارات وسط البلد الجميلة جدًا جدًا جدًا، كان أبي "يلفعني" القفا المعتبر لأرتد إلى وعيي، أتوقف عن محاولات

البحلقة في فتاة الدور الثالث الواقفة تقريبًا دون أي شيء يغطي أي شيء.. فهم أبي الأمر سريعًا، ليأخذ مناوبة خاطفة من البحلقة، ثم يقول:

ـ فن عمارة أيه إللي بتعشقه يا ابن... العمارة.

تنظر له أمي شذرًا واعية بطبيعة الجناس الناقص "في الرجل الناقص"، كما تقول دوما..

تفحم أمي جناس أبي الناقص المتواري بجناسها التام الواضح تمامًا، فيما أظل أنا أقهقه متشفيًا فيه بسبب هذا القفا الذي شتت مجال رؤيتي، ولم يسمح لي بالتملي في نهدين معروضين على الملأ بالمجان..

سماع موسيقى سترافنسكي أمر عصيب بالنسبة لأسرتي .. وبالنسبة لي أيضا،لا أنكر. ليس أجمل منه دي بوسي على أي حال.. الإيقاعات شبه المجردة هذه تثير أعصابهم، وأعصابي، لكني أحاول التذوق.. يفتح أخي مهرجانا ويرقص بجنون عليه.. أزعق فيه، أوبخه، أحذره تحذيرًا أخيرًا، أتعصب، أثور بشدة، أكاد أضربه.. ثم أجد أن جسدي كل قد ساخ على إيقاع موسيقى المهرجان، فأرقص معه، مكونين دويتو عظيم جدًا فيما بيننا.. هكذا يحتفظ المرء بمبادئه سليمة..

لمحتني أمي ذات يوم وأنا أتأمل لوحة عالمية عن لحظة ميلاد فينوس، هذا الميلاد المنوي الغريب.. في الواقع كانت المرأة عارية تماما.. ليس من الواقعي أن يولد

الإنسان بملابس جاهزة، هذا أمر الله وسنته، لكن المشكلة الأكبر أنها وُلدت –فينوس– مكتملة الأنوثة، وشرشحت لي أمي بكامل طاقتها.. ظنوني شخصًا إباحيًا مراهقًا.. لم يعلموا بعد بأمر قراءتي ليوسا والست سلوى النعيمي في الخفاء.. ظلت رواية امتداح الخالة أمام الجميع، لم يحاول واحد منهم ولو مجرد الإطلاع على سطر منها.. فرحت خالتي يوم رأتها وقالت:

ـ بتحب خالتك يا ضنايا؟

ـ لا طبعا يا خالتي متخليش خيالك يروح لبعيد.

تضايقت بيني وبين نفسي من علماني، مترجم الرواية.. أما كان يصح قط استخدام أي لفظة أخرى غير الخالة؟ خصوصا وأن دم هذه الخالة يلطش؟ إن نصه قابل للتشوه حين تتقافز أمثال تلك الخالة إلى ما بين القارئ والمقروء..

لم يضايقني نعتهم لي بالإباحي وتوبيخي، أنا فعلا إباحي وهذا أمر منته.. المشكلة أن تنتشر عنك هذه السمعة بسبب صورة غير حقيقية لرسام أهبل.. أتمر كل أفلام السكس من تحت أيديهم وتقع هذه الصورة؟ ماذا لو سموني – في خضم الأسماء الجاهزة الكثيرة– بناكح الصورة؟ أنا بالضبط مثل من سرق مليون جنيه وتم توقيفه حين كان يسرق مشبكًا من على حبل غسيل.. هذا عار..

لم أستطع الاستمرار في هذه الأمور، كل محاولاتي باءت بالفشل التام .. قراءة صباحًا وندوات ليلًا ومناظرات وفلسفات ورأسي يطن بكل تلك الأشياء ولا يفهم.. هذه الأمور تصنع بداخلي عجينًا غير مفهوم.. تشوه الحياة التي أفهمها ويفهمها أبي معي – وأخي – هذه الأشياء المعلقة في أحد أدوار عمارات وسط البلد.. الحياة ليست في رأس هومر أو أفلاطون أو هيجل.. الحياة تتدلى – أتمنى ألا تفهم أختي هذا الدرس الحقيقي جدًا، مصيبة لو كانت فهمته من زمان ووقعت الفأس في الرأس- من صدر إحداهن حين تمشي متبخترة في الشارع بكل ثقة قائلة: يا أرض اتهدي ما عليكي أدي..

الحياة لا تتمنطق يا أصدقاء، إنها عبثية وإباحية.

سأدع كل هذا جانبًا، هذه الأفكار السخيفة التي حاولت تقضية أوقات الفراغ بها، خصوصا وأن "مرام" التي كانت تعجبني وأتمنى التعرف عليها عن قرب شديد جدًا، وكانت السبب في تعرفي على تلك الشلة المخبولة، الشلة التي تحملت قرفها من أجلها، من أجلها هي التي عرفت في النهاية بطبيعة علاقتها مع طارق، طارق ثقيل الظل الذي عرفني على صورة ألدوربرانديني، ورشح لي رواية يوسا، وأعطانيها على سبيل الإعارة، لكني لن أرجعها له قط، رغم ثمنها الغالي؛ هكذا اتفقت مع خالد بيني وبينه، خالد الذي يدافع بشدة عن صورة "جرانتيكا"- ضد طارق الذي يفضل صورًا أخرى ويستسخف جرانتيكا في المقابل- والذي عرفني على سترافنسكي ودي بوسي-.. أقول سأدع كل هذا جانبًا لأن المصلحة التي تتبعتها فسدت، ومرام مشغولة،

مشغولة جدًا بطارق وسيلفيا بلاث وآن سكستون وكافكا، هؤلاء القوم المعقدين.. ما هذا الحظ السيء يا ناس، لماذا لست أنا ضمن مواضيع انشغالها؟ أمن أجل تعليق فتاة يحدث لي كل ما حدث؟!

فاصل (7) تلصص

في نفس الوقت – بعد العشاء– كل يوم أجيء إليه.. لا يلمحني لكني أحصي عليه كل حركاته.. أرصده من وراء حجر كبير.. اعتزلَ البلدة وسكن قاربه منذ عام، على إثر خلاف راحت ضحيته زوجته.. أحبه منذ طفولتي، وكما مآل كل شيء ضاع مني وسط عاصفة، بضربة موجة عاتية، فتفرقنا.. لم أرتبط بعده بأحد.. أنا أعند أهل الأرض، كرامتي لا تقبل بالاستسلام لا له ولا لغيره. . أحبه ولا يمكن الارتباط به، بالطبع لا أحب غيره فلا يمكنني الارتباط بأحد سواه.. كل ما في الأمر أني أجيء لأطمئن عليه، أراعيه دون علمه، أسانده دون أن يشعر بوجودي.. الحب قدر، القدر شديد أحيانًا.. فعلي أن أتقبل القدر ون أصمد للشدة.. أن أحب بلا أمل، أبحر في مركب بلا بوصلة، وبحر من دون شطآن..

لازال الكتاب صديقه الأزلي.. لا يترك قاربه إلا كي يحضر بعض الكتب، يقرأها في ضوء القمر، وبعد أن ينهيها يذهب ليحضر غيرهم.. القراءة اللعينة التي علمنيها وأوقعتني في حبائل حبه.. معاً –في الطفولة – قرأنا قصص الأنبياء لعبد الحميد جوده السحار وسيد قطب، وقرأنا قصص كامل كيلاني.. حاولوا سرقة كامل كيلاني، كما سرقوا مني حبيب الطفولة.. سرقات سرقات.. العالم كله سرقات.. وها أنا أسترق إليه السمع الآن.. فأنا السارق والمسروق..

يعشق في الليالي القمرية مراقبة القمر والصيد.. يصطاد السمك ويطلقه.. لا يقوى على إيذاء كائن غيري.. سأتركه للقمر يأخذ لي بحقي منه.. لكن على القمر أن يترفق به كما ترفقت أنا به، يكفيه أن يشاغله بنوره أثناء تطلعه إليه.. يناوشه من وراء الغيم في الليالي الشتوية، كما كنت أناوشه بواجهة المرآة وتسليط أشعة الشمس على وجهه..

الساعة العاشرة الآن يجب أن أرجع إلى البيت.. يجب أن أمشي كيلا يلاحظني.. سيبحر ناحية الشط، وينزل ليحضر بعض الكتب.. آه لو علم أن كل أسرار الكتب في حضني أنا!

*****

المعضلة

على طرف فرشة كتب يقف ليقلب كتابًا بين يديه.. من طريقة تأمله له تدرك مدى أهمية الكتاب بالنسبة إليه.. يغوص أكثر، يخرج بكتب أكثر.. يراعي ضميره ويفتش بدقة فتُبرز الكنوز نفسها، ليراها لآلئ فريدة.. يأتي دوما وفي باله أسماء معينة للبحث عنها.. لم يلتزم قط يومًا بهذه الأسماء، كما تائه في وسط بحر هائج، تتقاذفه أسماء كثيرة وعناوين أكثر، ليجد أنه في النهاية حصل على 5 ٪ مما خطط لشرائه، و95 ٪ مما لم يكن في الحسبان..

ترهقه فكرة ثقيلة تجثم على قلبه وعقله.. لقد اشترى من الكتب ما أصبح يؤكد دون مجال لشك أن بعض ما يشتريه لن يقرأه قط.. يتذكر الماضي حين كان يشتري كتبًا معينة فتعلو وجهه الدهشة والانفعال لحصوله على هذا الكتاب أو ذلك ثم يستشرف أن بعض تلك الإحساسات اللذيذة لن يجد وقتًا كي يحققها، لن يجد متسعًا كي يستشعر الإحساس العميق المكثف بفرحة قراءة تلك الكتب العظيمة التي ابتاعها.. بعض هذه الكتب وُضعت في أركان خفية وزوايا غرف شقته، في الثنايا والشقوق، بين أي شيئين تفصل بينهما مساحة من الفراغ، وانمحت آثارها.. الحصول عليها يعني حربًا شعواء مع عدد غير محدد من الكتب الآيلة للاهتراء والتشعث، المترددة بين التماسك والانهيار..

حين يعييه الحصول على كتاب لديه، متواجد بالأسواق يضطر لابتياعه مرة أخرى، لكن ماذا عن تلك الكتب التي حصل عليها من بطون الأزبكية ومن على أرصفة الشوارع وموانئ بحر المعرفة الشاسع الذي لا حدود له؟ ولا مجال لتوفرها مرة أخرى؟

يقرر وهو في طريقه إلى البيت الالتزام بقرارين مهمين: الأول عدم شراء أي كتب جديدة لحين الانتهاء من كميات معقولة من الأكوام المرصوصة عنده فوق بعضها البعض.. الثاني أن يضاعف من قراءته، ليقرأ مثلًا على الأقل كتابًا واحدًا يوميًا..

ينعطف يمينًا ناحية عم شوقي صاحب فرشة كتب يعرفها جيدًا.. يؤكد لنفسه أنه سينظر.. فقط سينظر.. فلا خطط أو احتمالات للشراء.. انتهى الأمر!

يصعق حين يجد الأعمال الكاملة لشبلي شميل أمامه، ثلاثة مجلدات، الواحد بخمسة جنيهات.. يخر مستسلمًا حين يلاحظ بجانبها أعمال منصور باشا فهمي الكاملة أيضًا.. هؤلاء العملاقين اللذين لم يحلم يومًا بالحصول على كتاب واحد لهما.. يجد أخيرًا أعمالهما الكاملة بثلاثون جنيها فقط لا غير؟

دون وعي يبرز النقود ويدسها في يد عم شوقي ويهرع إلى المنزل ليتصفح.. بعد أقل من خمس دقائق من الإمساك عن شراء الكتب يفشل.. فيعدل خطته لتكون: فلأحافظ على قدر معقول جدا من شراء الكتب مع مضاعفة معدل

القراءة.. تلك خطة لا تخر الماء..

يدخل منزله، يواجه بصرخات أهل البيت الضائقين بهذه الكركبة الشنيعة.. اعتاد السماع وعدم الرد.. قدم تبريرات كثيرة ولا حياة لمن تنادي.. "هذه كنوز لا يمكن تفويتها".. "هذه الكتب بأسعار جد مغرية جدا".. "هذا عليه خصومات كبيرة".. "هذا غير متواجد ونسخة نادرة.. لا أحد يمتلك مثيله"، "ما أبتاعه اليوم بجنيه لن أجده غدًا بعشرة"..كل هذا لا معنى له، في عرفهم.. يبدأ في تنفيذ البند الثاني من القرار الذي اتخذه في الطريق.. مضاعفة معدلات القراءة..

ينكب على الأعمال الكاملة لشبلي شميل يقرأ فيها ويقلب.. ساعة، ساعتين.. يتخللهما سؤال أخته الصغيرة، طلب من والدته، زعيق والده.. بعد قليل مقاومة يجد أنه لم يعد يستطيع استئناف القراءة.. يتألم ظهره وتوجعه رقبته..

كيف يمكن أن تتلاقى نقاط الضعف مع نقاط القوة بهذه الطريقة؟ يحمل رأسًا يعشق القراءة، ورقبة ضعيفة لا تستطيع التحمل.. إرادة دائمة لقراءة المزيد والتهاب مزمن في فقرات الرقبة يجعله يتسطح بمجرد الإيغال في الإطلاع.. هل هذا يجوز؟

يدفعه هذا التناقض إلى التفكير في إمكانية استئناف مالم يقرأه في الجنة لو كان له أن يدخلها.. هل تحتوي الجنة على مكتبات ضخمة تضم الأعمال الكاملة

لكتاب البشرية أجمعين، بل وحتى الأعمال الضائعة التي لم يعثر عليها قط؟ هل يمكن وقتها التأكد من عدد المجلدات الحقيقي لكتاب الفنون الذي ألفه ابن عقيل؟ في ظنه أن الكتب كائنات خالدة، أبدية لا يمكن أن تفنى قط.. حتى الأعمال الإيروتيكية لابد وأن تحتفظ بمكانها في مكتبة الجنة العظمى، أعظم وأضخم مكتبة في تاريخ المسكونة، قياسا على الخمر التي يحلل شربها والحور اللائي لا يُستقبح – حينئذ– مواقعتهن.. يمكن لأصحاب الكتب أن يلقى بهم إلى النيران أو الجنان – حسب ما قدمت أيديهم–، لكن مؤلفاتهم وكتبهم لابد وأن تبقى على الأقل منها نسخة واحدة يقرأها أهل الجنة فيستمتعون ويحيون لذات الدنيا العقلية..

يرنو بعينين حزينتين إلى رفوف مكتبته الضخمة.. ينشب حزن غريب براثنه في قلبه، تخيم عليه غيمة من الكآبة.. يحاول إيجاد حل لقراءة كل هذا.. ربما مائة وخمسين عامًا كافية، شريطة ألا يبتاع أي كتب جديدة.. لا الشق الأول ممكن، ولا الثاني محتمل.. لن يعيش مائة وخمسين عامًا، ولن يتوقف عن ابتياع الكتب.. هذا مع تجاهل نسب موت الفجأة، فربما يموت بعد ساعة.. ربما الآن! إذن – في كل الأحوال – بعض هذه الكتب، أغلبها ربما، هذه الكتب التي كانت مواقف الالتقاء بها أعيادًا وأفراحًا بالنسبة له، لن يستطيع فتح أغلبها والإطلاع على ما به..ستظل فرحته بلقياه أسماء معينة ناقصة غير مكتملة..

يمسح خده بأغلفة الكتب.. يشم روائح هؤلاء الموتى الأحياء.. تطفر دموع من عينيه.. تدخل أمه لتجده هكذا.. تسأله عما به.. لا يقول لها شيئًا.. لا أحد سيفهم هذا العشق.. يخبرها أن مغصًا ألّم به.. تحتضنه أمه.. فيتذكر الموت مرة أخرى.. هذا الذي سيغيب أحبابه عنه وسيغيبه عن أحبابه، الحياة أدوار معكوسة ومضبوطة من الفقدان والخسارة.. أو هي الخسارة بكل شكل وبكل لون وبكل طريقة.. نحن نولد بجيوب مثقلة، لتتساقط على طول الطريق، وعند النهاية ستذهب فارغًا تمامًا، مفلسًا تمامًا..

*****

الجزء الثاني

السجين

ألف ليلة مروا عليّ في محبسي. منفرداً بألمي، متفردًا بكآبة لا تنجلي. يرهقني الانتظار، والعيش على أمل لا أدري ملامح له. لغير ما سبب جئت، فما السبب الذي قد يجعلني أخرج؟ تنقصني ليلة لأكمل ملحمتي، سأنتظرها على كل حال فما باليد حيلة. أشعة الشمس تأتي حرة طليقة متضافرة لتنخرم على قضبان كوة صغيرة ملحقة بمحبسي، لا هي منفذ تهوية ولا هي نافذة تتطلع من خلالها إلى العالم الخارجي. هي حسرة، رمز للفقد، تذكير مؤلم بما وراء القضبان. ينفلت الجرذ الماثل أمامي من جحره مداعبًا خيطًا قصيرًا في فمه. هذا الذي هو سجن لي بمثابة قصر في عرفه. أنحصر في مكان واحد ليتجول كيفما شاء في كل مكان.. يقرصه الجوع أحيانًا كما يقرصني دائمًا؛ جوع شبقي للحرية، للأمل، للغد، لها..

تلقى إليّ لقيمات من الخبز العفن.. أتشمم رائحة المشروبات النتنة التي تعافها النفس وأجبرتني الظروف على تجرعها.. الجوع كافر والإنسان أشد كفرًا وجحودًا.. عرضوا الجرذ علي ذات يوم كوجبة.. جاءوا بثلة من الجرذان في قفص وقالوا: غداؤك اليوم! شكرتهم لكثير كرمهم: تكفيني جرعة ماء.. فآتوني ببول كلب، وأنا لم أفعل شيئًا كي أسقى بول كلب.. أنا فقط أحببت.. تتشكل ملامح الجرذ لترسم نموذجًا مصغرًا لقسمات وجه أبيها السلطان. في

عرفهم، مغازلة الحجر للقمر حرام صرف.. كبيرة لا تغتفر.. لا يفقهون ألا شيء للحجر طيلة عمره سوى نظراته المختلسة لقمره. يمنحه القمر نوره الصافي الهادئ، وهذا أغلى ما في حياة حجر ملقى في صحراء، لا تطؤها قدم إنسان قط.

تمر الليلة الألف، تأتي الليلة التالية، تتجسد لي، لا أدري أفي خيال، أم في واقع، أم في شيء ثالث بينهما. سهرت شهرزاد ألف ليلة وليلة تحكي.. أما حبيبتي- قمري- فقد جاءتني في الليلة الأخيرة من اكتمال الملحمة.. شهرزاد جاءت لتعطي المعنى في ألف ليلة، حبيبتي جاءت لتعطي في ليلة واحدة، معنى لألف ليلة. ترقص رقص الحكمة، تنويعات لكل المعاني الكبرى والعظمى في تاريخ البشرية.. تربط الأرض بالسماء، والقاصي بالداني، القمر بالحجر؛ تمسخ وجه أبيها الجرذي، تُكمل الصورة، تنظم الشواش، تقهر الفوضى، وتقر النظام.. تضع قطعة الأحجية الناقصة.. يكتمل القمر، ويندمل الجرح، ويتوقف الدم المسال..

يتحول جوعي إلى تخمة، يغلبني الفواق، أشعر بحاجتي إلى التقيوء.. أتقيأ خيوطا من نور، يتحلل النور بمجرد خروجه إلى أطياف قوس قزح.. يستحيل كل لون إلى فراشة حية مودعة إياي من فضاءات الكوة..

تذوب القضبان ويتشكل الخيط في فم الجرذ ليصبح حلة نورانية رائعة.. يتحول

الجرذ إلى قط، والقط إلى قرد والقرد إلى إنسي بهي.. يلبس الحلة ويذهب ليشاركها الرقصة..

أراني في ملامح هذا الإنسي الذي تخلق من جرذ.. أنا هو.. معها.. متماسكًا متشبثًا بها.. أصابعي تسد فراغات أصابعها.. نتحد بالأسمى.. يتحول السجن إلى قصر منيف، والقصر إلى حجرة عظيمة من حجرات الجنة.. في الجنة ندرك ان ثمة ما هو أعظم من الجنة.. صانعها. نرنو إليه، يغشانا نوره.. نذوب.. نفنى.. نتحلل.. نصبح ذرات ضوء. ترسلنا القدرة إلى نفس المحبس.. نفس الزنزانة، فنرى أنفسنا في ضوء أنفسنا، في نورنا.. يختلط النور بالنور.. يتوه الكل في الكل.. يرتبك النظام. يضيع. ينقص المكتمل، وينقص الناقص، وترجع الفوضى..

يتحول الراقصان إلى فكرة والفكرة إلى مثل.. يتقهقر المثل إلى عالم أفلاطون.. حيث تشكل كل شيء في هذه الأرض من مثال عظيم، فوق القانون وفوق الحدس. يختلط المثل بالكلمة فيسيران في عكس اتجاههما.. تتحول الكلمة والمثل لا إلى صورة بل إلى إله صغير.. إلى ابن إلهي.. ليس كأي ابن.. ليس عيسى ولا العزير.. إله صاف برئ لم يتعلم بعد خطايا الآلهة ولم يرتكب آثامهم. نصير إلهًا واحدًا مكتفيًا بذاته مستغنيًا عن الدنيا وعن كل شيء..

ينفصل، يستقل.. يتوحد.. يتعاظم ويكبر.. يصنع كونًا جديدًا.. ينزل فيه

كلانا، أنا وهي، آدم وحواء الكون الجديد.. نبذر قصة حبنا في سلسلة طويلة من سلاسل الخلق.. تكون بداية عالمنا الجنة ونهايته أيضًا، ووسطها وكل لحظة فيها، للجميع، وبدون شرط أو قيد..

*****

القُبلة

يطن رأسه بنباح ألف كلب دوبر مان جائع.. لا منذ يوم، أسبوع أو شهر حتى، بل منذ شب عن الطوق وأصبح لجسده حق، يحاول التعبير عنه، والثورة من أجله.. تتغذى الكلاب على ثنايا مخه.. ينهشونه، يقطعونه، فيسمع صوت ازدرادهم له..

يجسد له احتياجه الشديد الأشياء بألف عدسة تكبير، عدسة تجميل.. تترسخ في أعماقه أفكار مغلوطة، مشوهة، ملفقة عن المرأة، والأنثى والجنس.. الجوعان يحلم بسوق العيش، هذا حقه، لكن العيش في فم خياله شهد، فاكهة من فواكه الجنة..

ثلاثون عاما من ! من ماذا؟ النقص، التوق، الاشتياق.. كيف تصور آدم تفاحة في ربوع الجنة؟ لم يكن الاختبار صعبًا.. ماذا لو كانت التفاحة في صحراء جرداء، ماذا لو كان الاختبار حول نهر في أرض قفر يحرم عليه المساس به؟ في كل الأحوال كان سيفشل آدم.. في البدء كان الاحتياج، وبه بدأت القصة السخيفة لبني البشر.. هل هي سخيفة حقا؟ رغم كل ما وصل إليه؟ إن قرننا هذا الذي اخترع الكثير من الأشياء لم يتوصل إلى ابتكار ما نحن بأقسى الحاجة إليه.. هذا ما يقوله شخص ما مشهور لا يتذكر اسمه..

ماذا قدمت علوم الفضاء والهندسة الوراثية والفيزياء النظرية، لشخص تقتله

الرغبة، ولم يعد يجدي معه الصيام؟ لا شيء.

على مرأي منه تجلس امرأة ترشف قهوة الصباح.. يعشق النساء عاشقات القهوة، إنهن مصدر إغراء إضافي له.. الجو حار والكل متحرر لا يحمل على جسده إلا لبسة المتفضل كما يقول "امرؤ القيس".. الخفيف جدًا، على قدر الحاجة..

ذراعاها لا يمكن وصفهما.. فقط يمكن التقامهما، أكلهما أكلًا لو تمكن منهما.. ترفعهما أحيانا لتعدل وضعية شعرها فيشع من إبطيها نور..

ثلاثون عاما من ماذا؟ من اليأس، الجوع، الشبق.. يتوقف عن اختلاس النظرات، إنها حل سلبي جدًا.. النبتة ستموت عطشًا والماء على بعد ميل.. هل ينفعها النظر والتأمل في جماله بينما هو ينساب بعيدًا؟ هذه رفاهية. إنها في أمس الحاجة للأساسيات، للمبادئ الأولى، إنها في احتياج ولو إلى رشفة بول..

الكلاب تعوي في رأسه، والقافلة لا تسير، كل شيء متوقف يرقب المشاهدات اللانهائية اللاذعة اللاسعة دون تعليق أو تدخل.. بالأمس في مقر عمله كاد يجن من "عفاف" زميلته التي لا تتورع عن سكب البنزين على النار، تتفنن في إبراز كل ما هو بارز أصلًا.. ترسم الحدود بإتقان، ووسط كل منطقة تخرج إشارة دالة على ملكيتها لهذه المنطقة، أو تلك..

أفلام الجنس تمزج الواقع بالخيال.. ترسم صورًا أفلاطونية عن العلاقة بين

الرجل والمرأة.. يتقبل عقله كل شيء دون غربلة، إنه بالوعة مفتوحة تسرط ولا تطرد..

يعتقد كل النساء "ليزا آن".. لا يلحظ وسط تركيزه على الجانب المشرق البض الأملس المصقول المحدد بالتاتوهات، والمعطر بأسرار فيكتوريا والمحصن بمزيلات العرق والمبرفن بأغلى ماركات العطور الباريسية ، لا يلحظ وسط كل هذا، العرق والدم والبلغم والإفرازات الكريهة..

ثلاثون عاما من ماذا؟ من الكبت، من الخلل، من الذهان.. بمجرد الرجوع إلى منزله يستذكر كل تفاصيل عفاف.. إنها حاضرة بقوة.. لو فتحت جمجمته لوجدت أفخاذها وأردافها وثدييها.. يضع اللمسات الخاصة به على تخيلاته.. هو البطل وهي في أمس الحاجة إليه.. تتماجن كي تجذب انتباهه.. يتثاقل.. تقترب.. يقبل على مضض.. في الحقيقة لو أرادته أن يقبل قدميها كي تجود عليه بعلاقة لما تردد.. تقترب أكثر.. يشع.. يلتحم.. فيظفر..

هكذا كل يوم، مع امرأة جديدة.. المكان: رأسه.. مسرح الحدث..

لماذا لا يتزوج؟ لا يعتقد أن الإنسان يتزوج من أجل هذا السبب فقط، هناك ما هو أعمق وأكثر أهمية.. لا يمكنه الزواج من أجل أمر تستطيع أي فتاة ليل تقديمه له بورقة من فئة المائة جنيه.. أو مضاعفاتها، حسب الإضافات المطلوبة..

ثلاثون عاما من ماذا؟ من الوقوف على المحطات لمراقبة النساء، من التلصص عبر شقوق النوافذ، من الانحشار داخل الأتوبيسات.. لا يعرف كيف حدث هذا.. فجأة وبدون مقدمات وجد نفسه مع فتاة في مصعد واحد.. لا ثالث لهما.. فتاة عادية .. يشوبها جمال خفيف جدًا، لا تكاد تلحظه من فرط الإرهاق البادي عليها.. تحس أنها متلاشية تماما في ذاتها.. هي عكس عفاف بالضبط.. إذا كانت عفاف هي البوح، فتلك هي الاستتار.. أي شيء أفضل من اللاشيء.. هل يتحكم الإنسان دوما في إدراكه؟ هل كل حركاتنا خاضعة لمشيئتنا؟ هل نحن شخصيات في فيلم كرتون يحركنا شخص آخر، إرادة أعلى منا؟ دون وعي تحركت قدماه واندفع، طوقها وسط ذهولها.. قاومت.. دافعت.. احتك بها.. سيطر عليها تمامًا.. وقعت شفتاه على شفتيها.. تحولت مقاومتها استسلامًا.. استمتاعًا.. بدأت تضمه إليها أكثر.. إنها ستبتلعه، يحاول التخلص منها، لكنها دوامة لا يستطيع الفكاك منها.. دفعها بقوة شديدة حتى تخلص منها وراح يجري في الطرقات..

في الطريق لم يكد يستوعب ما حدث .. إنها أسوأ قبلة في تاريخ البشرية..

كل ما أحس به هو مرار طافح.. رائحة كريهة جدًا.. أفم هذا أم بالوعة صغيرة!؟ أجسد ذاك أم مقبرة!؟ هل هو بصدد جثة يداعبها؟ هل هو نيكروفيليك؟ هل هذا مصعد أم تبانة؟

تقيأ في طريقه عدة مرات كلما تذكر الواقعة.. انسدت نفسه.. ضمرت أعضاؤه.. أين قبلة ليزا؟ وضمة جوليا؟ ورائحة ريجان؟ ما هذا القبح؟ ما هذه القذارة؟ إنها تتحلل.. تتعفن.. كيف تعيش هكذا؟ يتصارع الحلم والواقع.. ما الجسد؟ من أين له كل هذا الجمال والقبح؟ ما الفرق بين الأشياء البعيدة والقريبة؟ هل هذه أجساد أم توابيت تحمل قاذورات؟ هل تحمل الأجساد طبيعة مزدوجة؟ فعلى البعد يكون لها خصائص وعلى القرب خصائص أخرى؟ هل يمكنه الاتصال جنسيًا بجسد بعيد ليس في مجال تملكه؟ أيمكن أن يحدث الجنس يومًا عن طريق التخاطر عن بعد؟

ثلاثون عاما من ماذا؟ من الإحباط، خيبة الأمل، الفشل.. في اليوم التالي ينتشر خبر وفاة الفتاة.. فتاة مصابة بالسرطان تعرضت لحادث (ما) بعد رجوعها من إحدى جلسات الكيماوي.. تعيش وحيدة في العمارة التي وقعت بها الحادثة.. يفهم الأمور بعد فوات الأوان.. إن الرائحة هي رائحة القيء، والعرق هو بسبب الغثيان والدوار المستمرين.. رائحة الكيماوي.. المرار، كل شيء فيها مر.. قصتها وحياتها فعلام يلومها؟

ألف عام من ماذا؟ من الموت، الفناء، الانعدام.. يتم التعرف عليه (من قبل ذاته).. يستحضر (ذاته) .. يعترف (لذاته).. يصدر الحكم (ضد ذاته) .. يتقبله بصدر رحب (من ذاته).. ولأول مرة في حياته يرى الأمور واضحة وإدراكه صحيحا.. صحيحا تماما.. أول مرة يلتقي بذاته..

القيء

أربعون طبيباً ولا أمل في تخفيف هذا البركان الذي يلفظ كل شيء إلى الخارج.. يلفظه ملتهبًا مشتعلاً، وأحيانًا مدخنًا.. تحاليل كثيرة وأشعّات على المخ وصونارات على المعدة ومناظير تخترقني من أعلى لأسفل ومن أسفل لأعلى والنتيجة واحدة في كل مرة.. لا سبب طبي واضح لكل هذا القيء، لكل هذا القرف.. ومع ذلك يكتب كل طبيب قائمة طويلة من الأدوية قبل وبعد ووسط الأكل والنوم والحياة..

تأتي صديقتي لنختلي.. أقيء؛ أستيقظ.. أقيء؛ أشاهد التلفاز.. أقيء؛ أذهب إلى العمل.. أقيء؛ أضحك، أبكي، أفكر، أسهم، أغضب، أستسلم، أنسى، أتذكر، أصوم، آكل، أشرب، أدخن، أصمت، أتحدث، أضاجع، أستمني، أداعب، أصلي، أرتل القرآن، أقرأ .. أقيء أقيء أقيء..

مع كل فعل جديد أو قديم يأتي قيء جديد.. كرهت الأفعال من كثرة القيء الذي يعقبها.. قررت ألا أفعل شيئًا على الإطلاق؛ فقئت دمًا..

استحالت الحياة بهذا الشكل.. مات أحدهم ذات يوم لقدرته الفائقة على تحويل كل ما يلمسه إلى ذهب.. لمس الطعام، أكله، فتحول إلى ذهب في جوفه ونفق نفوقًا غاليًا جدًا.. أما أنا فأحول كل شيء إلى قيء.. أينعم لا أنفق، لكن إلى أي مدى يستطيع هذا الجسد الإنسي تحمل هذا القيء العجيب؟

لم يستجب جسدي لأمور المنطق فأرشدني بعضهم إلى حلول شيطانية أو تدور في فلك الشيطان وأتباعه وأعوانه وجنوده.. فما أنا فيه ربما هو عمل مربوط في قدم كائن خرافي لا يعرفني ولا أعرفه، لكنه يضرني ولا يضره..

حين لا تجد جدوى لأي شيء، فلا مانع مما لا جدوى فيه.. ذهبت إلى إحداهن.. امرأة مشعوذة طاعنة.. تحل وتربط بكلام ليس كالكلام وأفعال ليست كالأفعال.. أمرتني فأطعت.. اجلس، فأجلس.. قف، فأقف.. تمدد، فأتمدد.. تضيف مساحيق فوق مساحيق وتهيج النار بإضافات غريبة.. لكل شيء اسم أعجب من سابقه ولاحقه.. أير حيوان منقرض، وضرس مومياء بائدة وشحمة جثة حديثة.. كل شيء فوق كل شيء.. أتماسك كيلا أقيء، فأقيء.. تمعن في الشرح والوصف والإيضاح فأمعن في القيء والاستفراغ.. ثلاث ساعات من التراكيب الغريبة والقيء الذي لا يتوقف رغم أني لم آكل شيئاً ولم تزر معدتي نأمة طعام، اللهم إلا سيل هادر من دخان سيجارة بائسة لم تدر حين صُنعت أن يرميها القدر في هذا المقام الذي أنا فيه..

لم تكتف بما فعلت ولم أتوقع خطوتها التالية حتى رأيتها تمد إلي خليطها في كأس أحمر قبيح وتأمرني بأن أشرب ما "عكّته".. رفضت لكنها حاولت استمالتي بالكلام المعسول المنطقي وكأنها أم تحاول إقناع ولدها بشرب اللبن.. لغير ما سبب معين وجدتني أشرب.. ولغير ما منطق وجدتني أتحمل طعم هذا القرف

الذي أعدته.. لم أكن أقيء رغم مرارته ورائحته الكريهة وشكله غير المتجانس ومروره اللزج بجدار قناتي الهضمية كأفعى تتسرب عبر شق كي تصيد فرخًا لا ذنب له حين وُلد وحين أُكل..

سحبتني وراءها، فانسحبت.. دخلنا غرفة غريبة، على جدرانها صور ولوحات وتماثيل لأشكال بدائية.. كائنات غريبة ذوات أعين محدقة بنقطة معينة على سرير معد لاستقبال ضيوف شهوة.. الأبخرة المتصاعدة في هذه الغرفة مختلفة عن تلك في الغرفة الخارجية..رائحتها نفاذة كريهة مقبضة لكنها بشكل ما مثيرة مهيجة..

سألتها أسئلة كثيرة عن أسرار هذه الأشكال والرسومات العجيبة.. عن هذه الرائحة، فنهرتني عن السؤال مع وعدٍ بتوضيح كل شيء حين تنتهي هي من سلسلة أوامرها المقززة، إذا كان ثمة مناسبة للتوضيح.. لم أكن أعرف أن أكثر الأشياء تقززاً ستطلبها مني في هذا المكان المقرف المقبض..

نامت وفارقت ساقيها وقالت:

ـ لج

ـ ألج بمن؟

- بـِي

ـ أحا

هممت بمغادرتها، فتغيرت نبرتها تماماً.. نبرة الأم الحنون التي كانت تبدلت تماماً، اكتسب صوتها ظلاً جديداً مخيفاً..

ـ جئت إلى هنا بمشيئتك الحرة.. لكن خروجك لا يكون إلا بمشيئتي أنا.

كلماتها أربكتني.. الثقة البادية عليها، رسوخها وثباتها أخافاني.. إنها لا تهدد تهديداً خائباً.. إنه تهديد واع مصمم يعرف قدرته وقدره تمامًا.. لذلك كله وجدتني أنصاع لأمرها.. أنا من أعاف صديقتي الحسناء فاجرة الجمال، ألج بالوعة قاذورات مسدودة بمخلفات ألف عام.. ألج امرأة ورداء صدئت بفعل الأزمنة.. ألج ثقباً حاداً في إناء نحاسي صدئ..

حين هممت بالولوج تغيرت صيغة كلامها المفردة لصيغة المثنى.. تحادثني وشخصاً ما آخر لا أراه..

"لجاني"..

"فولجت"..

"صبا حممكما"..

لا أعرف أي حمم يمكن أن تنسكب داخل سلة مهملات بها قيء وقرح وصديد ودم فاسد؟ أصبح القيء الذي جعل حياتي جحيماً حتى هذه اللحظة فجأة عذاباً رحيماً جداً، هيناً بالنسبة إلى معافرتي للوصول إلى لحظة الانسكاب

داخل هذه الشمطاء.. الأمر بألا أكف إلا حين أنتهي كنهاية طبيعية مع أي فتاة جميلة أشتهيها.. يجب ألا أتوقف لأي سبب مهما كان هذا السبب..

عاودني القيء كما لم يأت من قبل.. نهر سائل يخرج من جوفي.. تجشؤات واستفراغات مستمرة حتى بت أفتح فمي وينساب ما بداخلي إلى الخارج دون أي فعل إضافي.. لا أقاوم.. جهازي العصبي لا يقاوم.. أقيء كما أتفل شيئاً من فمي بمنتهى البساطة.. أقيء بطريقة أبسط من الشرب نفسه.. لا أدري كم بقيت أستجمع قوة خائرة لا تجد دافعًا لثورة أو فورة جنسية.. ينحني عضدي ويرتخي ولا أستطيع التوقف.. لا بد من الإتيان الكامل.. كان أسهل لهذا المني القذر أن يخرج من فمي عوضاً عن عضدي المتداعي.. لو أنها أمرتني بابتلاع هذا العضد لكان الأمر أهون من هذا الإتيان الدنس.. لكن وبغير ما متعة قذفت ناراً رأيتها سوداء شديدة السواد، أسود من قعر جهنم..

خرجت منها.. كان هذا هو أحسن إحساس عشته ذات يوم.. كل ماعدا هذا الولوج رحمة ونعمة لا نشعر بها..

لكن القيء رجع مرة أخرى شديداً كما كان.. رحت أقيء كأن نهراً ما يحاول مقاومة سد ضخم يحوشه.. ساعتين إضافيتين لسبع ساعات من العذاب.. شعرت بأن معدتي ستقفز خارجة من فمي.. شيء ما يكاد يسد حنجرتي.. لم آكل شيئًا.. لم أشرب سوى خراءها السحري هذا.. اختنقت.. احمرّ وجهي..

ازرقّ.. أنظر في المرآة ولا أعرف ما هذا الذي أتحول إليه.. تنفر عروق رقبتي ووجهي.. الموت قريب جداً.. أرواح هائمة تفرض نفسها على مجال رؤيتي.. لا أدري أأرواح أم أنفس شريرة تنتشر في كل مكان؟ كيانات سوداء تلف حول كيان واحد أسود كئيب وحيد وكأنه إله الشر والظلام.. كيان يقبع فوق جسد هذه المرأة الداعرة الفاجرة.. وكأنه يضاجعها.. بنفس هيئتي حين كنت معها.. يتحرك الشيء المتصاعد حتى لهاتي.. أقاوم كي أخرجه.. أبصقه.. فيخرج أخيراً..

أتنفس.. أملا صدري بالهواء.. أحاول شفط كل هواء الغرفة.. أحاول التنفس من مسامات جلدي.. حتى تهدأ أنفاسي أخيراً..

أمسك بهذه الكرة التي خرجت مني.. أشبه بثمرة تفاح خضراء جميلة.. مكتوب عليها بخط صغير على كل جهاتها.. كلام صغير جداً لا أراه.. أشبه بآيات قرآنية وإنجيلية وتوراتية.. عليها كلمات بلغات مختلفة، قديمة بائدة.. وكأنها ألواح موسى وحمورابي وخنوخ.. جميلة جداً هذه الثمرة ولا أدري من أي مصدر جاءتني.. جميلة لدرجة تخطف العقل.. حتى رائحتها وهي ثمرة وحيدة كسرت رائحة الغرفة الكريهة، عطرت الغرفة وعطرت أنفي.. أصبح الهواء لطيفاً بها.. غرامي بها جعلني أتمنى أن أحتفظ بها لنفسي إلى الأبد.. لكن أوامرها لم تكن قد انتهت بعد..

ـ هيا.. ألقها في إناء النار هذا..

ـ أُلقي ماذا؟

ـ هذه الثمرة الكريهة

ـ ولكنني..

ـ دون لكن..

بعد كل ما طاوعتها فيه لم أجد غضاضة في أن ألقي بالثمرة في جب النار الحقيرة.. تصاعدت النيران وكانت تأكل نفسها أكلاً.. صوت النار غريب جداً، لا يمكن وصفه، لكنه لم يكن صوت النار المعروف الغامض.. كان صوت النار الغاضب الثائر.. صوت قرقعة شديدة أشبه بصراخ ألف نبي ومبشر وفيلسوف.. صراخ كئيب مكتوم أسمعه بالكاد من وراء قرقعات النار المغتاظة.. نور اللهب، أو بالأحرى ظلامه كان أسطورياً لدرجة أن وجهي كله تشحم من الهباب الذي طلّ منها.. بقينا حتى خمدت نيران التفاحة.. ساعة كاملة حتى خمدت النار..

أمرتني بالخروج وعدم التفكير في زيارتها مرة أخرى لأي سبب كان..

لم أزرها.. ولم أقيء منذ ذلك اليوم.. لكن هذا الحلم الذي لا يتركني ويمثلني مشتركاً وإبليس في مضاجعة شخص ما.. كيف يمكنني الخلاص منه؟

*****

القلعة

أحصنها ضدي.. أضعها فوق قمة حصن داخل قلعة منيعة.. أحميها من نزوات عقلي وجوعه الشبقي.. أحاوطها بألف سياج ضد تخيلات تفكيري اللاواعي.. أكهرب ثدييها بحيث يلسعانني إذا ما فكرت بهما بطريقة حسية.. حلمتاها مدفعان يفرغان طلقاتهما في وجهي إذا ما اقتربت منهما أكثر من اللازم.. أزرع ما بين ساقيها بالشوك والأسلاك كيما لا يغريان كبتي.. أردافها أتخيلها لغمًا مزروعًا وسط حقل يعج بثمار تغري كل نهم.. إذا أغراك جني الثمر دون الاستحقاق انفجر فيك اللغم.. نزع اللغم حرفة وفن.. والاحتكاكات غير المشروطة في ذاتها تتطلب شروطًا لأجلها..

عرفتها منذ أسبوع واحد ولا أريد لجسدها أن يطغى على تفكيري، الاشتهاء الجنسي لامرأة لا تزال تتعرف عليها بذاءة لا تحتمل.. الجنس هو النتيجة وليس المقدمة.. الوقوع الأهوج على سحر الجسد طيش وتهور ذكوري مكروه في نظري..

أعطي عقلي حقه الكامل في استيعاب وجودها على مهل.. وجودها كله لا يكمن بكامله في ردف ولا ثدي.. عشق المرأة عكس الكتابة الأدبية تمامًا.. فإذا كانت الكتابة الأدبية هي الابتداء بالمحسوس والملموس عروجًا إلى المعاني

المجردة الكبرى، فإن عشق المرأة يبدأ من فوق نزولًا إلى ما هو تحت.. أولى خطواه المجرد وآخرها الانغماس في المادي اللبني اللزج..

يبدو الأمر صعبًا، لكن سلسلة الاستحكامات التي أحصن صورتها الذهنية بها تؤتي ثمارها.. بسهولة استطعت اشتهاء فكرة وجودها مؤجِلًا مرحلة اشتهاء جسد وجودها..

الالتهاب على حريق الصورة الذهنية في رأسك لامرأة ما هو أقرب لمضاجعة نفسك، لأن صورتك لا تعكس فتاتك بقدر ما تعكسك أنت كما المرآة.. حاولت تخيل طريقة يمكن أن ينكح بها شخص ذاته فلم أجد إلا هذه الطريقة..

تَسَرَبَت إلّي عبر خيط واه انطلق من جسدها في معرض من معارض الكتب، استنشقته أنفي وانغلقت عليه.. استحثت رائحتها أربعة أو خمسة أعضاء في جسمي.. أنف ومجار هوائية ورئة وقلب ومخ.. تلعبك نظام جسدي الدقيق المحكم واندلق عاليه على واطيه.. غربل مخي الخيوط الحمقاء التي تسربت مع خيطها وجعل خيطها نقيًا خاصًا جدًا بها.. ثم قام بتضخيم الخيط ألف مرة وصنع منه مثالًا ذهنيًا ونمطًا معينًا يحفظه تمامًا، مشفرًا جدًا بشفرتها الخاصة التي لا يمكن أن تختلط بأي شفرة أخرى.. المرأة ليست خمرًا وليست فاكهة، المرأة هفوة عطر تائهة تبحث عن أنف يحويها..

كان حفل توقيعها، والأرجاء من حولها مكتظة بذئاب بشرية أتت لابتياع روايتها وعليها طن من النظرات والاقتحامات والالتصاقات المجانية التي تظهر في صور غير مقصودة.. لمحت تلك اللزوجة العطنة من منصة دار نشر مواجهة لدار نشرها.. بعد انفضاض الجمع الأصفر ذهبت للحصول على نسخة من تلك الرواية، كتابتها لو اقتطعنا منها كيلوجرامات من التهويمات النثرية التي لا تدل على شيء لأصبحت أفضل حالًا، لكنها رغم ذلك كتابة طليعية فيها سحر وتحرر وتمرد مع نمط الكتابة النسوية المعروف الذي لا تدري من نبرته الحادة أهو يصرخ أم يتوسل لانتزاع حقوقها..

أريد للقائنا الحميمي الأول – إن حدث – أن يكون لقاء تأسيس وليس لقاء تنفيذ.. أريده عفويًا وفطريًا.. أريده أول مرة أن يكون فعلًا دون سوابق ولا حواش ولاهوامش ولا تطفلات عصبية تجعله متوقعًا أو محتملًا أو مرتقبًا أو مخططًا له..

أريد لتراكماتها البطيئة بداخلي أن تنمو على مهل كمولود جديد برحم أم، فإذا ما وصلت حد الإثقال الشديد أسقطتني التراكمات فتمد هي يدها إلّي لترفعني، فأرفعها..

لكن السؤال البديهي كيف أعرف أن هذا اللقاء سيأتي أصلًا؟ في الواقع أنا أعرف تمامًا.. رسالة عطرها أخبرتني بكل ما سيجري في المستقبل.. الروائح

ليست انسكابات عشوائية في الهواء.. الروائح رسائل دون مستوى الوعي، يلتقطها شيء ما فيّ ويترجمها لا للغة مفهومة تمامًا، وإنما لحدس وإحساس غامضين، يرشداني ويحركاني ولا يدفعاني بحمق في اتجاه ما..

ها هو الهاتف يرن، إنه الاتصال الأول.. لم أكن أتوقعه بل كنت أنتظره..رددت عليها:

ـ ألو

ـ ترى هل يختلف تصور النهاية كثيرًا عن انتظار النهاية؟ في الواقع هي نفس المغالطة الشهوانية التي تضع الاستنتاجات قبل المقدمات..

ثم أغلقت الهاتف في وجهي..

*****

ستة أشهر

يميل الطبيب عليها مخبرا إياها أن الأمر مسألة وقت.. ستة أشهر ، سنة على الأكثر.. تبتسم، فالأمر لم يعد يفرق معها كثيرًا، ليس على الأرض ما يستحق.. الناس بشعون لدرجة تجعلك تحتفل بمجيء ملك الموت وتصفق لحظة انفلات الروح من جسدك.. بالطبع هناك دومًا أناسٌ يهونون عليك الحياة وقرفها، لكنهم في حالتها قد سبقوها، إلى حيث ستلحقهم هي بعد قليل.. لا يوجد غير خطيبها الذي أجبرها خالها على الارتباط به كي تنهي فترة ولايته عليها.. لقد سأم الرجل وجودها، خصوصا تحت لسعات زوجة تعرف جيدًا كيف تكون حربائة للذود عن مصالحها..

تشكر للطبيب صراحته.. يعتذر منها قائلا:

ـ اعذريني.. لكني من المدرسة التي تؤيد بشدة فكرة إعلام المريض بكل شيء.. ربما معرفتك بالأمر يجعلك تنهين أمورًا قد أجلتِها كثيرًا..ربما عليك الاستمتاع بالبقية الباقية.. أعلم أنها جلافة مني لكن على قدر المصائب يستطيع الإنسان التأقلم مع كل شيء..

تشكره مرة أخرى..ثم تخرج..

تتمشى من مصر الجديدة حتى العباسية متناسية الزمن، متمثلة المكان، المكان الذي ألِفته على مدى 25 عامًا.. لا تخلو النزهة من مضايقات ومنغصات

شبابية تافهة.. تتمنى لو أنها تمد يدها لتأخذ ورمها وتلقيه في وجوههم القذرة.. هو زائد على جسدها يمتص خيراته وهم زائدون على الحياة يشوهونها ويقضون على كل شيء جميل فيها..

تكره جمالها أحيانًا لأنه يقع تحت مدى نظر هؤلاء، تتمنى منذ زمان أن تكون مسخًا كافكاويًا كي تُخرس تلك الألسنة، وتصفع تلك الوجوه الصفيقة..

تفكر بخطيبها. لابد وأن تخبره، أم تراها تنهي العلاقة في تكتم ودون إبداء مبررات؟! تشعر بالأنانية من هذه الفكرة الأخيرة.. يجب أن تتاح فرصة لكل إنسان كي يثبت إنسانيته ولو مرة واحدة في العمر، في موقف قد لا يتعرض له قط..

تدرك أنه حتى لو أثبت إنسانيته فلن تكون هي معدومتها.. سيقبل الارتباط بها على أي حال، وستقدر هي ذلك ثم ترفض بذوق وتفهم..تتصل به قبل دخولها العباسية وتطلب رؤيته على وجه السرعة.. يحددان مكانًا معينًا ويتقابلان عنده..

تحاول تحديد طبيعة علاقتها به.. لا توجد قصة حب كقصص الحب التي تقرأها أو تشاهدها.. تدرك لماذا يكره الحداثيون الأدب الكلاسيكي الحالم، الذي يصور قصصًا مثالية لا وجود لها على أرض الواقع الذي تطحنه أزمات الوجود.. ثمة علاقة تبادلية مبنية على المصلحة، هي ليست طرفًا فيها..

المصلحة قائمة بينه وبين خالها.. ستنتقل الولاية إلى شخص آخر، وهكذا يستريح الخال وزوجته.. في المقابل يحصل الخطيب على زوجة جميلة وتلائم مركزه الاجتماعي، ويحصل ربما على امتيازات وظيفية من خالها، مديره في العمل.. لم تحاول قط إبداء فضول بخصوص تلك الصفقة.. تجاهلتها تمامًا..

هل السرطان في أمور كهذه نعمة أحيانا؟! ربما هو كذلك..

تقابلا عند مطعم يعرفانه جيدًا.. أبدى قلقًا حين رآها فرسمت ابتسامة بصعوبة على محياها.. أخبرته، فاستمع بإنصات شديد.. خرجا يعلو ملامحهما ضيق واضح.

تحركت لا تدري إلى أي مكان هي ذاهبة.. كتلة أضواء الليل تزغلل عينيها.. ترتسم حبتا دمع داخل مآقيها فترى الدنيا أكثر ميوعة وسيولة.. يختلط كل شيء ويتداخل ليعود في نظرها كما كان أول مرة، قبل أن يحدث.. يدب الوهن والإنهاك في جهازها العصبي، تحاول التماسك وسط شلال من السيارات الهادرة، يخف تماسكها شيئًا فشيئًا.. ربما بإرادتها أو رغما عنها، تنسال فجأة وتمر قطع الحديد من فوقها..

*****

مخاتلة

1

المكان: شقة بحي جديد على أطراف القاهرة

الزمان: 2015

أستيقظ متأخرًا قليلًا.. ألعن نفسي وتعبي، لابد أنها الآن قد انتهت من احتساء كوب النسكافيه الصباحي.. تحبه مصاحبًا قالب الشيكولاتة الضخم الذي ابتاعته بالأمس من محل البقالة على ناصية الشارع..

ألبس القليل.. أتحرك ناحية نافذة الصالة المواجهة تمامًا لشقتها.. أراقبها بحذر اعتدت عليه على مدار سنة ونصف.. أحصيت كل حركاتها وتحركاتها التي تحولت مع الوقت لبداهة تنفس الهواء..

أوقظ هاتفي الخلوي بأغنية محببة لناظم الغزالي.. يصدح بصوته وأرفرف عاليًا مقتربًا منها.. ناظم لا يستقر في أغانيه أبدًا وأنا لا أستقر في واقعي قط.. لذلك تعرفت عليه وأحببته..

لا أدري لم تعلقت بها كجنين يلتصق بقاع بطن أمه مربوطًا بحبل سري يمده بكل سبل الحياة.. هي الحياة نفسها.. ربما لو لم تُولد لما وُلدت أصلًا.. هي ابنة قلبي وأنا ابن حيرتها التي تلفحني رغم المسافة الفاصلة..متناقضة؟ ربما.. لكن قلبي كذلك لم يهدأ يومًا وتطوح بين كل الأشياء الممكنة والمستحيلة.. المحتملة وغير المحتملة..

بدأ الأمر حين انتقلتُ إلى هذه الشقة محاولًا تناسي صدمات متتالية أرهقتني.. لمحتها تهف بمشيتها كنسمة تجعلك تتشكك فيما إذا كانت حقيقة هي أو خيال.. مثلها لا يمكن أن يكون حقيقة، لا يستطيع واقع قاصر محز استيعابها، لكنها أيضا لا يمكن أن تكون خيالًا، الخيال يعجز عن صناعتها.. فمن أين نبتت إذن ابنة الأمين هذه؟

تضحك أحيانا حين تحادث شخصًا لا أعرفه على هاتفها، فتحيلني ضحكتها لجسد كله أذن.. أذن فقط.

حين تعود في الثالثة عصرا، في الأيام شديدة الحر، يخطف النسيم منها باقة روائح يهدينيها.. أستقبل رسائلها بصدر في رحابة الكون.. تسكرني رائحة الاختمار.. اختمار عطرها ورائحة جسدها تحت وطأة سخونة شمس الصيف التي لا تهدأ.. الحياة عامة جاءت على إثر التهاب حراري شديد، وأنا – خاصة – منه بُعثت..

دقات كعب حذائها تحذر الجميع، تنبه الجميع إلى مقدمها، تُحذر وتُنبه، كبندول ساعة لا يستقر على حال.. لكنها تذكرني بأجراس حبيبة ناظم الغزالي التي تدق النواقيس داخل بيعتها.. هو تجرأ وسألها: من علم الخود ضربًا بالنواقيس، أما أنا فلا أجرؤ على شيء، فأضيع بين الحذر المفرط والانتباه الشديد!

من طول مراقبتي لتصرفاتها علمت أنها تبحث.. دوما تبحث.. عن معنى، عن لا معنى.. عن فكرة ونقيضها.. تلبس حتى تكاد تختنق من فرط حمولة ملابسها.. تلبس بهوس كي تغطي كل جزء منها.. وتتحرر بهوس حتى تكاد تثور ضد أدمة جلدها.. تقرأ الكتب، الكثير من الكتب، تهمل بعضها حتى أظنها ستحوله لقراطيس لب، وتحافظ على بعضها في مكتبة منظمة، شديدة النظام حتى أظن أنها على وشك الركوع أمامها.. تصلي لساعات متواصلة وتهجر صلاتها لأيام.. تمسك هاتفها بمجرد أن يرن وتتركه يرن حتى تعتقد أن المتصل قد شاب على الضفة المواجهة.. تقتلها حيرة شديدة ويحييها قلق مزمن.. ولا تكاد تلتفت إلّي، مراقبها الدائم المنقطع لها أبدًا، الشغوف باستقراء حركاتها وأفعالها.. أبقى في شرفتي أشاهد وأتملى وتبقى في تيهها ضائعة ومشوشة، على أمل أن تجدني ذات يوم، لكن هل ستجدني؟ أخشى ألا تفعل.. وأهاب إن ساعدتها على إيجادي.. لذا أقف دائمًا أنتظر.. لا أدري ماذا أنتظر حقيقة لكن ناظم يغني قائلا: الله يلهمك وصلي، وأغني داعيًا معه..

2

المكان: نفس الشقة بنفس الحي الجديد الذي هو على أطراف القاهرة

الزمان: 2016

يتقدم سمسار العمارة التي تقع بها تلك الشقة يتبعه شاب وفتاة تلتحم أيديهما معًا.. تدهمهما رائحة الطلاء الحديث جدًا للجدران.. يجوب بهما الشقة.. يعاينا كل التفاصيل، المساحة وتقسيم الشقة.. يتجه ناحية نافذة الصالة التي تطل على خلاء شاسع، ثم يعقب:

ـ زي ما إنتوا شايفين الشقة مش مجروحة خالص.. دي أول عمارة تتبني في الكومباوند.. سنتين تلاتة والمنطقة كلها هتعمر..

تبدو علامات الفرحة على ملامح الخطيبين.. يجلسان مع السمسار للاتفاق على السعر المناسب!

❊❊❊❊❊

وينساب الطريق

يقود سيارته ذاهبًا إلى عمله صباحًا.. كالعادة، يقف في الزحام حتى يظن أنه لن يتحرك قط، ثم فجأة يتحرك ليقف مرة أخرى بعد متر، اثنين، ثلاثة.. يدور عالم فيروز من حوله ليشكل خلفية بيضاء له يستطيع أن يبعث منها كونًا جديدًا موازيًا، لو أراد.. يسابق فتاة صغيرة في مرحلتها الإعدادية فتسبقه.. تجلت له فجأة من وسط الزحام مرتدية جونلة قصيرة فوق الركبة بقليل وتحتها بنطال لاصق شفاف من عند الركبتين، لا يكشف تفاصيل ذات أهمية..

في قدمها حذاء رياضي يساعدها على المشي الذي يقارب الهرولة، لا تلتفت أثناء مشيها إلى يمين أو يسار.. من رأسها تتدلى ضفيرة شعر ناعمة تتقافز على جانبي جسدها.. تتشكل حبات عرق جميلة على محياها، تقاوم أنفاسها المختنقة من أثر المسافات الطويلة التي قطعت والكوبري العلوي الذي تجاهد كي تعبره.. في مجملها عبارة عن قطعة من البراءة اقتطفت من أرض جنة سماوية..

على الناحية المقابلة، تقف امرأة ثلاثينية بيضاء جميلة، بقوام ممشوق، تنتظر حافلة أو سيارة ما، لا يبدو أنها اقتربت أو ستقترب على المدى القصير.. ترتدي بنطالًا أسود واسعًا، وتحجيبة بسيطة وقميصًا أصفر.. ينفرق بنطالها عند ملتقى قدميها بضيق خفيف، يُلمّح ولا يصرّح.. يتابعها بينما الطريق واقف، يتعقبها لوهلة ثم يرتد بصره إلى الفتاة الصغيرة..

يبحلق في المرأة الثلاثينية، تلاحظ نظراته الحادة، وتأرجحها ما بينها وبين الفتاة.. تنسى لوهلة نظرته لتتابع الصغيرة في مشيتها المتقافزة وتركيزها التام في خط سيرها لا يلفت نظرها شيء.. تنبهر من تناسقها وهندامها وحلاوتها..

يتابع المرأة التي تتابع الفتاة التي تتابع طريقها.. تنظر المرأة إليه فيوجه نظره إلى الفتاة التي لا تحيد قط عن مسارها لا بخطوة ولا بنظرة خاطفة.. حقيبة مدرستها تقفز في هدوء على الظهر لتهتز عضلات فخذها الدقيقة هزات لا تكاد تلمح، لكنه يلمحها.. قدماها من الخلف تبدوان جميلتين، جميلتين جدًا..

يبتسم..

تلاحظ المرأة رشاقة البنت ونهدها الكاعب وشرابها الشفاف الذي يعد ولا يفي..

يتحرك الطريق قليلًا ليبقى كل منهم في مجال نظر الآخرين.. المرأة تتأملها عن قرب أكثر وهو يتأملها في شغف أكبر.. والفتاة تجد في طريقها، تشق مسارًا منضبطًا جدًا، بجهد أقوى..

يلتفت إلى المرأة التي تلتفت إليه.. يقرران مواجهة نظراتهما دون مواراة..ينظرا مباشرة في عيني بعضهما، تمرق الفتاة من بينهما لتقطع حبل اتصالهما، ليلمحاها معًا من خلف.. جميلة براقة أكثر ربما مما تبدو من الأمام..

يقع الثلاثة تحت تأثير قوة أو قوى ما.. الفتاة يجذبها هاجس المدرسة، وعلى

هامشها يجذب الشاب والمرأة قوة أكبر.. غير محددة.

ربما هي قوة المآلات.. القوة التي تدفع قُدمًا ولا تتراجع قط.. يشعر كأن الفتاة لو قطعت الهوة بينها وبين المرأة لتحولت لنسخة منها طبق الأصل.. ولو توجهت المرأة ناحية الفتاة قاطعة المسافة الزمكانية بينهما لتحولت إلى ذات الفتاة ولأصبحتا توأمتين.. يعتقد أنهما شيء واحد في زمانين مختلفين.. يلتقط نظره التشابه عبر الزمن والأثير..

تظن الفتاة أنها تتحرر عن طريق وصولها إلى المدرسة وقضاء يوم، أسبوع، سنة.. لتصبح سيدة، تتزوج من رجل محترم، لترزق بأطفال جمال على شاكلتها.. هذه هي الطرق الطويلة المملة التي فيها من الحشو والتفاصيل ما لا لزوم له..

فلتقطع فقط المترات العشر الفاصلة لتصبح ما تريد..

تراوده فكرة النزول وترك السيارة والتوجه الى الفتاة وأخذها بالقوة ناحية المرأة.. يعتقد أنه عند وصولهما ستتحول الفتاة إلى امرأة كاملة.. كاملة من كل شيء..

ماذا لو فعل العكس.. لو أخذ المرأة ناحية الفتاة؟

تناجيه المرأة بعينيها.. يرمقها بحيرة.. تتحرك الجموع أخيرًا.. تنفك الأزمة.. ينساب الطريق..

الجزء الثالث

1

لما كنت قد ورثت عن والدي مكتبة قيمة ضخمة مترامية الأطراف طولًا وعرضًا، لذا فقد كنت أواجه دومًا صعوبات كبيرة للوصول إلى خبايا المكتبة، وأركانها، ورفوفها العليا.. فكرت وقدرت، فألهمني تفكيري إلى ابتياع سلم يساعدني.. بمجرد حصولي عليه، بدأت تتملكني عادة غريبة جداً، استجدت على شخصيتي.. فأنا أصعد، أحصل على الكتاب المرجو، أجلس فوق قمة السلم أتصفحه، تشدني الصفحات، أنسى نفسي.. أقرأ أكثر.. تغشاني شبه إغماءة نرفانية..

ذات يوم أنهيت كتابًا لهيجل كاملًا، بهذه الطريقة.. أتذكر كيف قرأت ثلاثية أمريكا لدوس باسوس على هذه الشاكلة.. تناديني أمي، تنصحني بعدم الاسترسال مع هذه العادة.. تخاف على عمودي الفقري من كثرة الانحناء والالتواء..

القراءة تتملكني.. لا أستطيع الاستغناء عن ملمس الكتاب ورائحة أوراقه النفاذة.. الكتاب حياتي كما كان حياة والدي.. أخذني معه ذات يوم لابتياع كتاب موسوعي نادر، الحصول عليه يستلزم الاشتراك في مزاد علني.. أمام أبي وقف رجلان يشبهان اللوردات.. بدأ المزاد بمبلغ متواضع ثم وصل إلى سعر مبالغ فيه جدًا.. استفز أبي الأمر فقرر سؤال اللورد عن سر تمسكه بهذا الكتاب،

فأخبره أنه يحتاجه ليزين به جزءا ناقصًا في مكتبته.. تماسك والدي وحاول إنهاء الصفقة بمنح الرجل كتابًا مشابهًا من حيث لون الغلاف والسمك وما إلى آخره..

الغريب جدا في أمر العادة إياها أني أصبحت أدمنها لدرجة غير طبيعية.. فحتى حين يكون الكتاب قريبًا من مستواي، فإني آخذه وأصعد به إلى قمة السلم حيث أصبح كبرج عاجي ألتحم من خلاله بالكون المعرفي المحلق في دنيا وراء الدنيا..

لكن ثمة مشكلة كبيرة في مكتبة أبي.. إنها قديمة تفتقر لحس الحداثة، كُتبها طاعنة في القدم.. أحتاج لتجديد روحها، أزودها بالجديد، بآخر الإنتاجات الأدبية.. غدًا ربما أتوجه لأقرب مكتبة للحصول على قائمة الكتب التي نويت ابتياعها مؤخرًا..

2

لقد بدأت ثورة الكتب ضدي، أنا الذي لا أراعي المسافات ولا خصوصيات الكتب وحقها في مساحات من الفراغ تتنفس فيها وتمارس أقل حقوقها في الحياة "التموضع بارتياح"، أظل طوال الوقت- دون وعي - أبتاع الكتب أكوامًا حتى بات الأمر مهزلة حقيقية، وحتى باتت الثورة أمر لابد منه، لا يدفعه إلا مزيد من السعة غير المتوفرة في الوقت الحالي..

كتبي وأنا وبيتي في أزمة حقيقية، فلا يجوز بالنسبة لي التوقف عن التقاط "اللُقط"، ولا يجوز بالنسبة للكتب الإتيان بضيوف جدد سرعان ما يحيطهم نفس المصير المظلم، ولا يجوز بالنسبة للبيت كل هذه "الكركبة" التي تجعل منه مرتعًا لشتى صنوف العناكب والحشرات..

هذا ما جناه الحب، حب الكتب والولع بها.. أتذكر موقفًا سمعته عن ألبرتو مانغويل يحكي قصة رجل ظل يبتاع الكتب ويضعها في كل أركان البيت حتى وجد نفسه في النهاية في حديقة منزله لا مكان له، فقد احتلت الكتب كل شبر ولم يعد يصلح للمبيت إلا في الحديقة..

فهل مصيري يشبه مصير ذلك الرجل؟ مع العلم أني لا أمتلك حديقة ولا يحزنون، وإنما شوارع زينها القبح وتوجتها الفوضى عروسا لشيطان مريد.

إنها أزمة حقيقية.. ولكن ليت كل الأزمات تخص إعادة تشكيل علاقاتنا مع من نحب لترسخ هذه العلاقات أكثر وتصبح أقوى وأشد مقاومة للعاديات..

ليت كل الأزمات كتاب..

3

تعثرت بين الأرفف.. هذا الكم الهائل الذي تريد شراءه بمبلغها الضئيل وضعها في حيرة كبيرة.. تحتاج أن يساعدها أحد على ترتيب الكتب من حيث أولوياتها.. تقدمتُ تجاهها، عرضت المساعدة.. ارتبكت الكلمات، تحاول التعبير فتفشل.. هدأتها.. بدأت تجمع الخيط رويدًا رويدًا.. قبلت عرضي.. رتبت لها الكتب بأكثر من طريقة.. الكتب النادرة التي إن تركتها فربما لا تجدها بعد ذلك.. الكتب ذات التقييمات العالية.. الكتب التي صدرت من دور نشر أخرى بأسعار أقل.. الكتب الضعيفة التي تستحوذ على اهتمام مبالغ فيه من القراء.. استقر الأمر على بضعة كتب في حدود المبلغ الذي معها.. ستضطر لقطع المسافة حتى بيتها مشيًا، هكذا قالت؛ لكن الأمر يستحق، هكذا علقتُ.. التاريخ يغلب في قائمة مشترياتها، تاريخ الأديان تحديدًا، فراس السواح خصوصًا، تعقبه الروايات، كونديرا، على وجه الدقة.. تحب ايقاعاته البطيئة.. تشعر بلزوجة عالمه الروائي.. الاختناق، محاولات النجاة المستمرة، والضائعة في الوقت نفسه.. هكذا عبرت.. أعجبني تفسيرها.. عرضت عليها هدية "الحياة هي في مكان آخر"، أحب هذه الرواية له جدًا.. كلنا حيواتنا الحقيقية هي في مكان وزمان آخرين مؤجلين.. قبلت الهدية، هدايا الكتب لا ترد، ردها حماقة.. وعدتها إن هي قرأت هذه الكتب في ظرف أسبوع بهدية أخرى.. حفزها الأمر وارتسمت ابتسامة ساحرة على محياها.. بريق عين القاريء بكتبه

الجديدة بريق لا تخطئه عين قاريء آخر.. اتفقنا، وأكدت "الأمر منته".. أحببت روح التحدي.. استأذنت.. تحركت بتردد.. مشت.. غادرت.. لم أسألها عن اسمها.. نسيت ذلك تمامًا.. حضورها طغى على اسمها، وهشاشتي الفطرية تهشمت على صخرة تلقائيتها والعفوية التي تحدثت بها.. على أي حال سيمر الأسبوع لا محال، لكن شيئًا من كل ما جرى لي معها حتما لن يمر.. خرجت، ثمة مشكلة بسيطة جدًا، لقد التهمت هديتها كل ما تبقى في جيبي.. سأترجل المسافة كاملة بين التحرير والزيتون، لعل المسافات تبتلع الأسبوع السرمدي هذا الذي أنتظر مروره.. لم أرجع إلى بيتي يومها بكتب.. لكني رغم ذلك رجعت محملًا بحمولة كبيرة، حمولة تثقلني وتُطلقني وتجعلني كائنًا لا تُحتمل خفته..

4

و من عاداتها الجميلة جدًا، الرقيقة جدًا، أن تنتابها سنة من النوم وهي تقرأ، فتتخيل شخوص رواياتها وتتفاعل معهم أو معهن.. أوقظها فتراني وكأني بطل واقعها، تعتذر فأربت على كتفها.. تعلم كم أكره عدم الاعتناء بالكتب، فتضعها على قدميها بحرص شديد مؤكدة بيدها على موضع أمانها.. ذات مرة أرادت أن تفدي كتابا من السقوط فتأذت يداها،غضبت منها وأخبرتها أنه " لا خير في الاعتناء بالكتب إن لم تعتني جيدا بنفسك".. تفهمت ووعدت بألا تنام

أثناء القراءة مرة أخرى، لكنها رغم حرصها على كل وعد قطعته لي، لم تستطع تنفيذ هذا الوعد مطلقًا.. إنه الوعد الوحيد الذي تمنيت في قرارة نفسي ألا تحققه بمنتهى الجدية.. هي لا تدري كم أعشق مشاهدتها على هذا الحال.. إنها تصبح أقرب إلي الملائكة منها إلى البشر.. ولم تدر بأني ذات مرة رسمت لها صورة وهي على تلك الوضعية المحببة جدًا إلى قلبي ..من الأفضل ألا تجذب انتباههن للأشياء والعادات التي تحبها فيهن، كي يبقين يفعلنها بعفوية وتبقى تستمتع بها دون لفت انتباههن..

5

حين أقرأ لا أكون مواقعًا لفعل زائد على الحياة، لا أباشر عملًا ترفيهيًا، بل أكون في صميم قلب الحياة، أمارس أصلًا من أصولها.. فوق ذلك أنا أعيد تشكيلها، أطورها، أدفعها.. كل الإحباطات والمغالطات والمفارقات تتكسر على غلاف كتاب يهدينيه أحدهم، أو أشتريه.. القراءة في نظري هي ما تجعل هذا العالم أكثر تحملًا، بعد أن جعلته الحروب والصراعات أقل نبلًا وإنسانية. .ليتني كنت ورقة في كتاب، نقطة حبر في سطر.. لجوناثان سويفت قصة رائعة اسمها حرب الكتب، تخيل فيها نقاشات وصراعات تدور بين أبناء المكتبة الواحدة، القديم والجديد، انتصر في النهاية للكتب القديمة، أما أنا فأنتصر للكتاب بشكل عام.. أنظر إلى مكتبتي، أتخيل حوارات تدور بين الكتب وبعضها، أتدخل لأحسم

مشاكلهم.. أحنو عليهم، أوفق بينهم، أضع الكتب التي كان أصحابها على خلاف شديد بجانب بعضهم، "على السفود" يرتكن على كتف "عبقرية عمر"؛ "رأس المال" ملتصق ب "ثروة الأمم"؛ "تهافت الفلاسفة" يليه "تهافت التهافت".. كلهم في النهاية شكلونا وكونونا وجعلوا فينا ذلك الجزء الذي يمكن أن نرضى عنه، وسط بيداء السخط.. أنا لا أعيش على هامش مكتبتي، أنا أحيا فيها وبها..

6

ـ واضح جدًا أنك لا تقرأين منذ فترة.

ـ فعلًا.. أنا متوقفة عن القراءة لشهر أو أكثر.. لكن كيف عرفت؟

ـ لا شيء.. فقط أصبحت أفكارك مشتتة، كلماتك غير حاضرة، تبذلين مجهودًا كبيرا لتجميعها، تستوعبين بعض كلماتي بصعوبة، سرعة بديهتك تباطئت جدًا، نجابة عينيكِ منطفئة، هندامك غير منظم، ابتساماتك شحيحة وباهتة، لم تعودي تستشهدين بأبيات أبي العلاء وابن الرومي.. مررنا على فرشتي كتب ولم أجد لمعة وتألق عينيكِ.. انقضت علينا ساعة دون أن تذكري كافكا أو كامو.. تبدين مريضة منهكة.. علامات الكبر والشيب تحتل وجهك.. إنك يا عزيزتي تتلاشين.. إن بقائنا مرتبط بعالم الكتب، محيطنا لا يسع أحلامنا، لذلك

فبتركنا القراءة يضيق العالم علينا بما رحب.. نتصاغر ويتضائل كل شيء.. ونصير عدمًا.. هل تنوين الانتحار أو ما شابه؟

*****

فهـرس